مكتبتى
http://ahmedbn221.blogspot.com/

وزارة التربية والتعليم

حياة محمد صلى الله عليه وسلم

فى قصص

للصف السادس الابتدائى

10

دكتور
أحمد عبد الفتاح ماضى

تأليف

عبد التواب يوسف

Dr. Ahmed Mady
11-7-2009
Tanta

طبعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الجهاز المركزى للكتب الجامعية

دكتور
أحمد عبد الفتاح

وزارة التربية والتعليم

AM
23-2-2003
JAN 19
الأهرام
٧٦٠
بمناسبة ميلاد
يوم
MOA
سعيد ناصر ١٠ سنوات

صلى الله عليه وسلم

حياة محمد
فى قصص

للصف السادس الابتدائى

تأليف
عبد التواب يوسف

طبعة ١٩٨٣

الجهاز المركزى للكتب الجامعية
والمدرسية والوسائل التعليمية

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« فهـــرس »

الصفحة

١ ـ فيـــل أبرهه ٩

٢ ـ ليـــلة القـــدر ٢١

٣ ـ عنقـــود عنب ٣١

٤ ـ الـــبراق ٤٣

٥ ـ حمـــامة الغـــار ٥٣

٦ ـ ناقة الرســـول ٦١

٧ ـ بـــئر بـــدر ٦٩

٨ ـ شـــجرة الحديبية ٧٩

٩ ـ راية الإســـلام ٨٧

هـــذا الـــكتاب
يحدثكم عن نفسه

أنـا كتاب وأنَا سَعِيدٌ بِهَذَا كَثِيرًا . . .

وَأَشْعُرُ بِأَنِّى أَعْلَى شَىءٍ فى الْوُجُودِ ، وَأَنَّ وَرَقى أَغْلَى مِنْ أَوْرَاقِ الْمَـالِ وَالنُّقُودِ . وَالسَّبَبُ فى ذٰلِكَ :

- أَنَّ اللهَ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَهْدِىَ الْبَشَرَ ، بَعَثَ إِلَيْهِمْ بِكِتَابٍ . . كِتَابٍ مُقَدَّسٍ . . فَالتَّـوْرَاةُ كِتَـابٌ ، وَالإِنْجِيلُ كِتَابٌ ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابٌ .

- وَأَنَّنـى كِتـابٌ عَنْ مُحَمَّـدٍ (ﷺ) ، خَاتَـمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، الَّذِى أَرْسَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً . . هَادِيًا وَدَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْمَحَبَّةِ وَالسَّلَامِ لِلنَّـاسِ أَجْمَعِينَ .

- وَأَنَّنى كتـابٌ لِلنَّـاشِـئِينَ . . الصِّـغَـارِ . . الأَطْـهَـارِ . . أَحْبَـابِ اللهِ ، وَأَحْبَابِ الرَّسُولِ الْكَرِيم .

مِنْ شِدَّةِ فَرْحَتِى باسْمِى وَعُنْوَانِى وَقُرَّائِى ، أَقُولُ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ لِكَىْ أُقَدِّمَ نَفْسِى ، وَأُقَدِّمَ هٰذِهِ الْحِكَايَاتِ الَّتِى أَحْمِلُهَا بَيْنَ أَوْرَاقِى . وَهِىَ حِكَايَاتٌ وَاقِعِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ ، حَدَثَتْ كُلُّهَا ، وَجَمِيعُ مَا فِيهَا صِدْقٌ ، وَإِنْ جَاءَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْحَيَوَانَاتِ والأَشْيَاءِ . . الَّتِى تُحِبُّونَ يَا أَبنَائِى الْأَعِزاء أَنْ تَسْمَعُوا الْحِكَايَاتِ عَلَى أَلْسِنَتِهَا .

• • •

وَجَمِيعُ مَا فِى هٰذِهِ الحِكَايَاتِ جَاءَ فِى الْقُرْآنِ الكَرِيمِ وفِى الكُتُبِ الَّتِى تَجْمَعُ الأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ الشَّرِيفَةَ ، والكُتُبِ الَّتِى تَحْكِى حَيَاةَ النَّبِى العَظِيمِ ، وهِىَ كتبٌ كثيرةٌ كثيرةٌ . سَتَقْرَءونَهَا كلَّهَا بِإِذْنِ اللهِ عِنْدَمَا تَكْبَرُونَ وَتُصْبِحُونَ رِجَالاً مُؤْمِنِينَ صَالِحِينَ .

وَأَنَا وَاثِقٌ أَنَّكُمْ سَتَقْرَءونَهَا كُلَّهَا بِاهْتِمَامٍ شَدِيدٍ وَسُرُورٍ، وَأَنَّكُمْ سَتُحِبُّونَ النَّبِيَّ الكَرِيمَ العَظِيمَ مِنْ كلِّ قُلُوبِكُمْ ، وأنكم سَتَعْمَلُونَ دَائِمًا عَلَى الاقْتِدَاءِ بِهِ وَبِأَخْلاَقِهِ العَظِيمَةِ .

القصة الأولى

- فيـــل أبرهه
- يحكى لنا عن
- مولد الرسول (ﷺ)

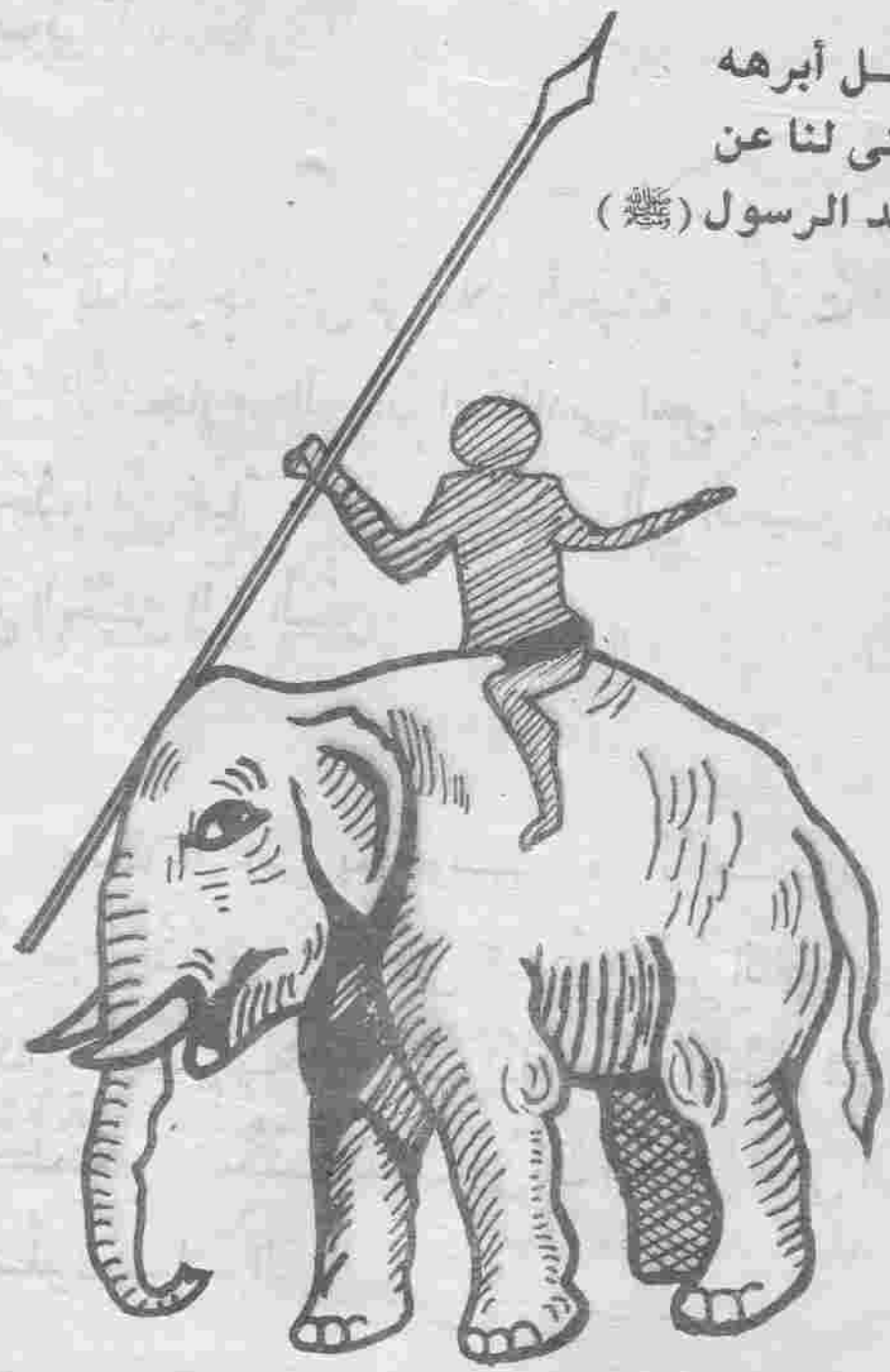

لى خُرْطُومٌ طَوِيلٌ . . وَلَـكِنَّنى لَسْتُ فِيـلاً فى غَابَةٍ ، أَوْ فى حَدِيقَةِ الْحَيَـوَانِ . بَلْ عِشْتُ مُنْـذُ زَمَنٍ بَعِيد . . وَكَانَـتْ لى شُـهْـرَةٌ كَـبِيرَةٌ ، وَحِـكَايَةٌ غَرِيبَـةٌ أُحِـبُّ أَنْ تَعْـرِفُوهَا .

بَدَأَتْ حِكَايَتى فى بلادِ الْحَبَشَةِ . وَكُنْتُ أَعِيشُ حُرًّا بَيْنَ الأَشْجَار ، إِلَى أَنْ اصْطَادَنى أَهْلُ الْحَبَشَةِ . وَعِنْدَمَا وَجَدُوا أَنِّى فِيلٌ عَظِيمٌ ، ضَمُّونى إِلَى الْجَيْش ، وَسَافَرْتُ مَعَ الْجَيْش إِلى الْيَمَن .

وَكَان النَّـاسُ يَخَافُونَنِـى ، وَيَرْتَعِشُـونَ عِنْـدَمَـا يَسْمَعُونَ بِقُدُومى ، لأَنِّـى كُنـتُ أَنْشُرُ الخَـرَابَ فى كُلِّ مَكَانٍ أَذْهَبُ إِلَيْـهِ . وَكُنْتُ إِذَا خَطَوْتُ فَـوْقَ شَىءٍ كَسَرْتُهُ وَحَطَّمْتُهُ ، وَتَمَكَّنْتُ بِذَلِكَ مِنْ أَنْ أَجْعَـلَ أَهْلى الأَحبَـاشَ يَجْتَـلُّونَ بِـلادَ اليَمَن .

وَأَكْرَمَنى الْقَائِدُ « أَبْرَهَةُ » وَجعلَنى الْفِيلَ الخَاصَّ بِهِ ، وَرَفَضَ أَنْ أَحْمِلَ الأَحْجَارَ وَالأَخْشَابَ لِلْمَعْبَدِ الكَبِير الَّذِى كَانَ يَبْنِيهِ ، فَقَدْ كَانَ يَبْنى مَعْبَدًا كَبِيرًا لِيُصْبِحَ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْبَدِ الموْجُودِ فى مكَّةَ ، وَالَّذِى كانَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ يَزُورُونَهُ .

وَقَدْ أَقَامَ « أَبْرَهةُ » فى مَعْبدِهِ الكَبيرِ كَعْبَةً مِن الذَّهَبِ حَتَّى يَحُجَّ النَّاسُ إِلَيْهَا بَدَلاً مِنْ أَنْ يَحُجُّوا إلى كَعْبَةِ مَكَّة . غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ لَمْ تَأْتِ إلى كَعْبَةِ « أَبْرَهَة » ، وَاسْتَمَرُّوا فى الذِّهَابِ إِلى مَكَّة .

وَضَاقَ « أَبْرَهَةُ » بذَلِكَ وَغَضِبَ ، وَقَرَّرَ أَن يَهْدِمَ كَعْبَةَ مَكَّة . وَبِذَلِكَ لاَ يَجِدُ النَّاسُ أَمَامَهُم غَيْرَ الْكَعْبَةِ الَّتى بَنَاهَا مِن الذَّهَب فَيَأْتُونَ إِلَيْهَا .

وَأَعَدَّ « أَبْرَهَةُ » جَيْشًا كَبِيرًا لِكَىْ يُحَارِبَ بِهِ مَكَّةَ ، وَأَهْلَ مَكَّةَ . . . وَكُنْتُ ضِمْنَ هَذَا الْجَيْش . وَبالطَّبْعِ ، لِيرْكَبَنِي الْقَائِدُ « أَبْرَهَةُ » الَّذِى سَيَسِيرُ فى أَوَّلِ الْجَيْش . . وكانَ « أَبْرَهَةُ » يَنْوى أَنْ أَحْمِلَهُ حَتَّى الكَعْبَةِ . . كَعْبَةِ مَكَّةَ . وَعِندَمَا أَمِيلُ عَلَيْهَا بِجسْمِى الضَّخمِ سَوْفَ أَهْدِمُها . وَكَثيرًا مَا فَعَلْتُ هَذَا فى بُيُوتِ أَعْدَاءِ « أَبْرَهَة » .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّنى لَمْ أَكُنْ رَاضِياً عَنْ هَذَا العَمَل . وَلَكِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرْفُضَ الذَّهَابَ مَعَهُمْ . وَقَدْ سِرْتُ وَجَيشُ « أَبْرَهَةَ » حَوْلى ، وَالْجُنُودُ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلِها . . وَعَن الْكَعْبَةِ وَحِكَايَاتِها .

وَعَرَفْتُ أَنَّ الَّذى بَنَاهَا نَبىٌّ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ اشْتَرَكَ مَعَهُ فى الْبِنَاءِ . وَقَالُوا إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ صَاحِبَ مُعْجِزَات ، فَقَدْ رَمَاهُ قَوْمُهُ فى النَّارِ وَلَمْ تَحْرِقْهُ .

وَعَرَفْتُ أَنَّ هَذِهِ الْكَعْبَةَ شَرِيفَةٌ ، وَأَنَّهَا فى بَيْتِ اللهِ الحَرَام . وَأَنَّ هَذَا البَيْتَ الحَرَام بَيْتٌ آمِنٌ ، يَدْخُلُه النَّاسُ فَلاَيَمَسُّهُمْ أَحَدٌ بِضَرَرٍ أو سُوءٍ ، وَيَهْبِطُ فِيهِ الْحَمَامُ فَلا يَصْطَادُهُ أَحَدٌ وَلاَ يَقربُه أَحَدٌ . إِنَّهُ مَكانٌ هَادِىءٌ آمِنٌ ، مُقَدَّسٌ . . . يُحِبُّهُ النَّاسُ ، وَيَحْتَمُونَ به ، وَيُصَلُّونَ فيه

وَعَرَفْتُ مِنَ الْجُنودِ أَنْ أَهْلَ مَكَّةَ خَافُوا عِنْدَمَا سَمِعُوا عَنِّى ، وَعِنْدَمَا عَرَفُوا أَنِّى ذَاهِبٌ إِلَيْهِمْ ، لأَنَّهُم سمِعُوا عنْ قُوَّتى ، وَقُدْرَتى عَلَى هَدْمِ كُلِّ ما فى طَرِيقى .

* * *

وَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِىَ لَنَا لِكَىْ نَصِلَ إِلى مَكَّةَ سِوَى لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَبَعْدَهَا تنهدمُ الْكَعْبَةُ ، وَتنهدِمُ مكَّة كلها . ولَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جَيْشٌ يَعْتَرِضُ طَرِيقَنا أَو يَمْنَعُنَا مِنْ التَّقَدُّمِ . . الطَّرِيقُ مَفتُوحَةٌ وَلاَ أَملَ فى أَنْ تَنْجُو مَكَّةُ أَوْ تفْلتَ مِنَّا الْكَعْبَةُ . وَكَانَ كُلُّ مَنْ فى الْجَيْشِ يَنْظُرُ إِلىَّ فى إِعْجَابٍ . وَكَثيراً مَا قَالَ لى بَعْضُهُمْ :

تَقَدَّمْ يَابَطَلُ . . . سِرْ يَافِيلَ « أَبْرَهَةَ » يَا أَعْظَمَ الأَفْيَالِ ! وَفيمَا نَحْنُ نَتَعَجَّلُ الْوُصُولَ إِلى مَكَّةَ ، تَجيئُنا رِوَايَةٌ عَنْ « عَبْدِ المُطَّلبِ » زَعيمِ مَكَّةَ ، تَجْعَلُنا جَميعًا نُفَكِّرُ فى مَعْنَاهَا ، وتَجْعلُنا جَميعًا نَهْتَزُّ منْهَا .

قَالُوا إِنَّ « عَبْدَ المطَّلبِ » لما عَلِمَ أَنَّ « أَبرهةَ » وَجَيشَهُ وَأَنَا سَنَهْدِم الْكَعْبَةَ ، لَمْ يَخَفْ ، بَلْ قَالَ :

« لِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ » .

هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْكَبيرَةُ الَّتى قَالَها « عَبْدُ المُطَّلِب » ، جَعَلَتْنى أَخَافُ . لَقَدْ أَصْبَحْتُ أخاف . . . أنا الْفِيلُ الرَّهِيبُ الَّذِى أَمُرُّ وَسَطَ أَيَّةِ مَدينَةٍ ، وَفى لَحْظَة أَجْعَلُها خَرَابًا ، وَلاَ يَبْقَى مِنْها بَيْتٌ وَاحِدٌ قَائِمٌ فى مَكَانِهِ . . . نعمْ خِفْتُ مِنْ هذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتى قَالَها « عَبْدُ المُطَّلِب » . وَبَدَأْتُ لاَ أَقْدِرُ عَلَى السَّيْر . شَعَرْتُ بتَعَبٍ شَديد . وَلَمْ أَكُنْ وَحْدِى الَّذِى أُحِسُّ بهَذَا . . بَلْ كُلُّ الأَفْيَالِ ، وَكُلُّ الْخُيُولِ ، وَكُلُّ الْجمَالِ ، وَكُلُّ الْجُنُودِ . . أَصْبَحُوا غَيْرَ قَادِرينَ عَلَى السَّيْر .

وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ وَجَدْتُ نَفْسى أَقِفُ مَكانى . . لَمْ أَقْدِرْ عَلَى التَّحَرُّكِ ، كَأَنَّ أَرْجُلى التصقَتْ بالأَرْض . . تَسَمَّرتْ فيهَا . . لاَ أَسْتَطيعُ نَقْلَهَا مِنْ مَكَانِهَا خُطْوَةً وَاحِدَةً ، فى الطَّريقِ إلى مَكَّةَ .

انْزَعَجَ « أَبْرَهَةُ » وَالجُنُودُ . أَدَارونى إلى الْخَلْف فَتَمَكَّنْتُ مِنَ السَّيْرِ ، أَدارُونى إلى اليَمينِ اسْتَطَعْتُ الْمَشْى ، أَدَارُونى إلى الْيَسَارِ خَطَوْتُ بِبَسَاطَةٍ ! وَعِنْدَمَا جَعَلُونى فى اتِّجاهِ الْكَعْبَةِ وَقَفْتُ وَلَمْ أَتَحَرَّكْ ! ضَرَبُونى . . جَذَبُونى . . دَفَعُونى . . لَسَعُونى بالنَّار ، وَمَعَ ذَلِكَ ظَلْتُ فى مَكانى . . لَنْ أَذْهَبَ إلى مَكَّةَ ، لَنْ أَهْدِمَ الْكَعْبَةَ مَهْمَا فَعَلْتُمْ مَعى ! كانُوا لاَ يُريدُونَ أَن أَرْجعَ إلاَّ إذا خَلَّصْتُهُمْ مِنْ مَكةَ وَكَعْبتِها وَأَهْلِها .

وَفَجأَةً . . حَدَثَ شىءٌ غَريبٌ عَجيبٌ . . رَأَيْتُ بعَيْنىَّ طَيْرًا تُغَطِّى السَّمَاءَ كُلَّهَا ، لاَ تُظْهِرُ مِنْها شَيْئًا . .

حَتَّى أَنَّ الدُّنْيَا أَظْلَمَتْ ، وَلَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ أَن أَعْرِفَ هَلْ أَنَا فى حُلْم ، أَمْ أَنَا صَاحٍ أَرَى مَا حَوْلى ! وَسَمِعْتُ الجُنُودَ يَصْرُخُونَ :

هَذِهِ طَيْرٌ أَبَابيل [1] ، تَرْمى بحجَارَةٍ مِنْ سِجِّيل [2] .

وَتَسَاقَطَتْ عَلَيْنَا حجَارَةٌ صَغيرَةٌ ، رُبَّما لاَتَزيدُ عَلَى حَبَّةِ الفولِ أَوالْقَمْح . . يَنْزِلُ الْحَجَرُ الْوَاحِدُ مِنها عَلَى أَضْخَمِ فيلٍ مِنْ زُمَلائى ، فَإِذَا بِهِ يَرْقُدُ عَلَى الأَرْض . . يَسْقُطُ عَلَى أَكْبَرِ جَمَلٍ فَإِذَا بِهِ يَبْرِكُ عَلَى التُّرابِ . . يهْبِطُ عَلَى أَضْخَمِ رَجُلٍ فَإِذَا بِهِ يَنْتَهِى وَيَمُوتُ . . وَوَجَدْتُنى أَنَا الْفِيلَ الشَّهِيرَ أَنْظُرُ إِلى مَا حَولى وَأَرْتَعِش . لَقَدْ دَمَّرْتُ الْكثيرَ فى حَياتى ، وَلَكِنَّنى لَمْ أُشَاهِدْ مِثلَ هَذَا الَّذِى أَرَاهُ يَحْدُث . . وَوَجَدْتُنى أَرْكَعُ وَأَنَا أَرَى مِن بَعِيدٍ نُورًا يَمْتَدُّ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاء . كانَ هَذَا النُّورُ حَوْلَ مَكَّةَ . .

---

(١) طير أبابيل : جماعات كثيرة من الطير .

(٢) حجارة من سجيل : حجارة صلبة .

وَرَأَيْتُ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ زَعِيمَ قُرَيْشٍ يَقِفُ لِيَتَقَبَّلَ التَّهْنِئَةَ مِن النَّاس ، وَكَلِمَةُ « مَبْرُوك » تَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسِنَتِهِم . . لأَنَّ جَيْشَ « أَبْرَهَةَ » قَدْ انْتَهَى ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَن يَدْخُلَ مَكَّةَ أَوْ يَهْدِمَ الْكَعْبَةَ !

* * *

وَكَانَ عَبدُ الْمُطَّلِبِ يَحْكِي لِمَنْ حَوْلَهُ مَارَآهُ فى المَنَام . . لَقَدْ رَأَى كَأَنَّ سِلْسِلَةً مِنَ الفِضَّةِ خَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهِ ، لَهَا طَرَفٌ فى الأَرْضِ وَطَرَفٌ فى السَّمَاءِ . . وَظَهَرَتْ هَذِهِ السِّلْسِلَةُ بَعْدَ قَلِيلٍ كَأَنَّهَا شَجَرَةٌ ، وَعَلَى وَرَقَةٍ مِنْها « نُور » وَتَعَلَّقَ بها كُلُّ النَّاس .

وَفَسَّرَ السَّامِعُونَ الرؤيةَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى أَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ سَيُرْزَقُ ابْنًا يَتَعَلَّقُ بِهِ النَّاسُ فى الشَّرقِ وفى الغَرْبِ . . وَبَشَّرُوهُ . . . وَهَنَّأُوه . . . وَسَأَلوه :

ـ مَاذَا تُسَمِّيه ؟

أَجَابَ : أُسَمِّيهِ مُحَمَّدًا . . لِيَحْمَدَهُ مَنْ فى الأَرضِ وَمَنْ فى السَّماءِ .

وَكَانَتْ مَعَ بُشْرَى مَوْلِدِ مُحَمَّدٍ نِهَايَتِى ، أَنَا الْفِيلِ الشَّهِير . . وَنِهَايَةُ « أَبْرَهَةَ » وَجَيْشِه الكبير . . . وَبَقِيَتْ مَكَّةُ ، وَبقِيَت الْكَعْبَةُ ، وَسَتَبْقَى إِلى آخِرِ الدَّهْر ، خَالِدَةً عَزِيزَةً ، تَتَّجِهُ إِليها أُمَّةُ مُحَمَّدٍ (ﷺ) خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَهِيَ تُصَلِّى للهِ ، الَّذِى أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَبِىَّ الهُدَى ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلام .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُم فى تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحجارةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»[1] .

[صدق الله العظيم]

---

(١) كعصف مأكول : مثل التبن الذى تأكله البهائم .

القصَّة الثانية

- ليلة القـــدْر
- تحكى لنا عن
- نزول الوَحْىِ على محمد عليه السلام

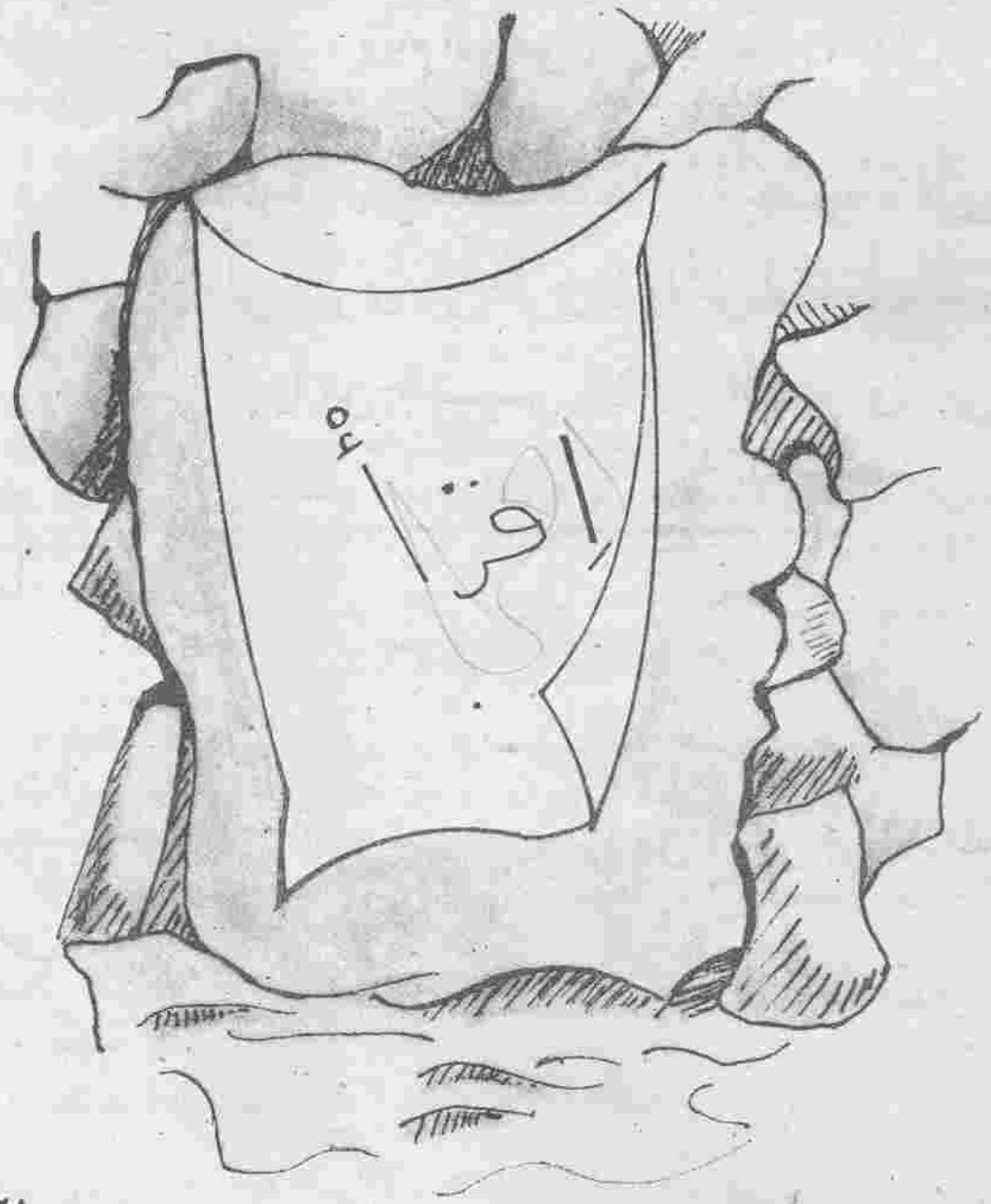

غَربتْ الشَّمسُ عَن الدُّنيا ، وَحَلَّ الظَّلامُ ، وَتَناثَرَت [1] النُّجُومُ فى السَّماءِ ، وَلَمْ يَظْهَر القَمَرُ ؛ لأَنِّى لَيْلَةٌ مِنَ الليالى الأخيرةِ للشَّهْرِ الْعَرَبِّى « رمضان » .

واسْتَقْبَلَنى النَّاسُ فى مكةَ مِثلَ أَىِّ ليلَة ، فَسَهِر البعْضُ يسْمُرُ ويلْهُو ، ونَامَ البعْضُ إلى أن يَطْلُعَ النَّهارُ .

والحقيقةُ أنَّ الدُّنيا مُنْذُ خُلِقَتْ كَانتْ تَنْتَظِرُنى . لأَنِّى لَيلَةٌ لى قَدْرِى ولى ذِكْرى ولى أَثَرى ! وَلأَنِّى لَيلَةٌ كلُّها نُور . . وهُو لَيْس نُوراً مِن الشَّمْس وَلاَ مِن الْقَمَر وَلاَ مِن الكَهْرباءِ . . وَإِنَّما هُوَ « نُورُ الله » ، أَضاءَ الأَرْضَ وأَضاءَ السَّماءَ .

وبفَضْلِ هذَا النُّورِ ، وبسببِ ما حَدَثَ بَعْدَهُ . . أَصْبَحْتُ خَيْراً مِنْ أَلْفِ شَهرٍ ، خَيْراً مِنْ أَكْثَرَ مِنَ ثلاثٍ وثَمانينَ سَنَةً !

---

(١) تناثرت : انتشرت .

أَنَا لَيْلَةُ القَدْرِ . .

جِئْتُ فى شَهرِ رَمَضَانَ . سَنَةَ ٦١٠ مِيلادِيَّة ، أَىْ قَبلَ أَنْ يَبْدَأَ التَّارِيخُ العَرَبِىُّ الهِجْرِىُّ بِنَحْوِ ثَلاثَةَ عَشَرَ عَامًا .

وَكَانَ خَارِجَ مَكَّةَ غَارٌ يُسَمَّى غَارَ حِرَاءٍ . كَانَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ يَذْهَبُ إِلَيْهِ كثيراً ، وَيُقِيمُ فيه طَوِيلاً ، يُنَاجِى رَبَّهُ وَيُصَلِّى لَهُ وَيَعْبُدُهُ وَحْدَهُ . . بَيْنَما كَانَ أَهْلُ قُرَيش يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ .

وَعِندَمَا جِئْتُ ، كَانَ مُحَمَّدٌ (ﷺ) قَدْ بَلَغَ الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ . وَكَانَ فى الغَارِ يَتَعَبَّدُ وَيَتَهَجَّدُ ، وَيَدْعُو رَبَّهُ وَيُنَاجِيهِ وَيُنَادِيهِ وَيَقُولُ لَهُ ما مَعناهُ :

« يَارَبَّ هَذَا الكَوْن ، يَا خَالِقَ هَذِهِ السَّمَوَات ، يا خَالِقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ، يَا خَالِقَ هَذِهِ الأَرْضِ وَهَذِهِ الجِبَال ، ياربِّى وَخَالِقِى ، وخَالِقَ الكائناتِ . . أُرِيدُ وَجْهَكَ . . أُرِيدُ وَجْهَكَ ! » .

وَبَينما هُوَ يُرَدِّدُ هَذا الدُّعاءَ ، وَيُكَرِّرُ هَذَا النِّدَاءَ ، تَمْتَلِئُ الدنْيَا بِالنُّورِ . . نُورٍ فى الأَرْضِ ونُورٍ فى السَّماءِ . . وَيَنْزِلُ مَلاكٌ مِنَ السَّماءِ بأَعْظَمِ كلماتٍ سَمِعَتْها الدُّنيا . وَيَقُولُ هَذَا الملاكُ ، الَّذِى هُوَ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ . . يَقُولُ لِمُحَمَّدٍ :

ـ اقْرَأْ .

فَيَرُدُّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام :

ـ مَا أَنَا بقَارِئٍ .

فَلَمْ يَكُن الرَّسُولُ يَعْرِفُ الْقِراءَةَ وَالْكتَابَةَ .

فَيَتَقَدَّمُ مِنْهُ جبْريلُ ، وَيَضُمُّهُ إِلى صَدْرِهِ ثلاثَ مَرَّات ، وفى كُلِّ مَرَّةٍ يَقُولُ لَهُ :

ـ اقْرَأْ .

وَيَرُدُّ مُحَمَّدٌ فى كُلِّ مَرَّةٍ :

ـ مَا أنَا بقَارئٍ .

ثُمَّ أخَذَ جِبْريلُ يتلو عَلَى مُحَمَّد ، وَمُحَمَّدٌ يُرَدِّدُ مِنْ بَعْدِهِ :

« اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (١) ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّم بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وَانصَرفَ جِبْريلُ ، وَشَعَرَ مُحَمَّدٌ بالخَوْفِ ، وأسْرَعَ إلى بيْتِه . وَدَخَلَ إلى زوْجَتِه خدَيجة ، وكانَ يرتَعِشُ وَعلى جَبينه حَبَّاتُ عَرَقٍ . فَأسْرعَتْ بهِ إلى الفِراشِ ووضَعَتْ فَوَقَهُ الغطاءَ .

وَعندما بَدَأ مُحَمَّدٌ (ﷺ) يَدْفَأُ وَيَهْدأُ ، حَكَى لزوجته ما حَدَث . وَذَكَرَ لها كيف غَمَرَهُ النُّورُ رَغْمَ الظَّلامِ فى غارِ حِرَاء . وَرَوَى لَها كَيف جاءَ جبريلُ وطلب منه أن يَقرأ ، وبماذا ردَّ عليه فى الأوَّل ، ثُمَّ كيفَ رَدَّد وراءَه ما كان يَتْلُوهُ عليه . وتلاه مَرَّةً أُخْرَى عليها .

(١) علق : دم .

حاوَلَت السيدةُ خديجةُ أن تُطَمْئِنَ الرَّسُولَ عليه الصلاةُ والسلام ، فقالت له :

– إنَّ اللهَ مَعَكَ ، فأنتَ إنسانٌ طَيِّبٌ كريم ، تُحبُّ أَهلكَ ولاتَكْذِبُ على أحد ، وتُساعد كُل الناس ، وتُعْطِى الحقَّ لصاحبه . إنَّكَ كريمُ الأخلاقِ صادقٌ أمين .

وَرَغِبت السيدةُ خديجةُ فى أن تَطْمَئِنَّ أكثَرَ ، فصحبت الرَّسولَ إلى ابنِ عَمِّها « وَرَقَة بن نوفل » وكانَ شيخًا عاقِلاً وحكيمًا ، قَرَأَ كُتُبًا كثيرةً وصاحب أهلَ الإنجيل والتَّوراة (١) ، وعَرَفَ كثيرًا مِنْ أُمُورِ الدِّين . ولذلكَ كَرِه الأَصنامَ ولمْ يَعُدْ يَعْبُدُها .

سَمِعَ « ورقَةُ بنُ نوْفل » مِن سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ مَا حَدَثَ فى غارِ حِرَاء ، فقامَ مِنْ مكانِهِ واحتَضَنَ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا وهو يقولُ له :

---

(١) أهل الإنجيل : هم النصارى ، والإنجيل هو كتاب سيدنا عيسى عليه السلام وأهل التوراة : هم اليهود ، والتوراة هو كتاب سيدنا موسى عليه السلام .

ـ إنَّ هذا وَحْيٌ نَزَلَ إليكَ. أَنْتَ نَبِيٌّ، نَبِيُّ أُمَّةِ العَرَبِ، بل نَبِيُّ الدُّنياكلِّها. إنَّكَ مِثْلُ « موسى وعيسى » اختاركَ اللهُ وَأَرْسَلَكَ لِتَهدِيَ النَّاسَ إلى الخَيْرِ والحُبِّ والرَّحْمَةِ. والنَّاسُ لن يُصَدِّقُوكَ في أَوَّلِ الأَمْرِ.. وسوفَ يُخْرِجُونَكَ مِنْ بَلَدِكَ. وَلَكِنَّكَ في النهايةِ سَوْفَ تَنْتَصِرُ عليهم. بَعْدَ أَنْ تُقَاتِلَهم وَتُحاربَهم.

كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ يَطُولَ بي العُمْرُ، فَأَعِيشَ حَتَّى أُدافعَ عنْكَ وعن رسالَتكَ.

هَدَأَ سيِّدُنا مُحَمَّدٌ (ﷺ) تَمامًا، وارتاحَ إلى كَلام « ورقَةَ بن نَوْفَلَ » وتمنَّى أن تَأْتِي ليالٍ كثيرةٌ مثلى. يسمعُ فيها صَوْتَ الوَحْيِ ينزلُ عليه. وكان يخرجُ إلى الجِبالِ وَإلى الغَار، وينتظِرُ الوحْيَ في شَوقٍ كَبيرٍ.

وتَحقَّق لهُ ما تمنَّى... عادَ إليه الوحْى، وكانَ هذِهِ المرةَ في بَيْتِهِ. فشَعَرَ بنفسِهِ يرتَعِدُ

ويرتَجفُ ويرتَعِش . ونادى زوجتَهُ خديجةَ لكى تضعَ فوقَهُ الغطَاءَ ، قائلاً :

– دثِّرينى . . دثِّرينى (أى ضَعى الغطاءَ عَلىَّ) !

فَغَطَّتْهُ السيدةُ خديجةُ فى فراشِهِ . فَسمِعَ جبريلَ عليه السَّلامُ يقرأُ عليهِ بصَوْتٍ لا يَسْمَعُه أَحَدٌ غَيْرُهُ :

« يَأَيُّهَا المُدَّثِّرُ (١) ، قُمْ فَأَنْذِرْ . . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ . . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٢) وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٣) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

ثُمَّ توالَى بعد ذلِكَ نُزُولُ الوحى عَلَى النَّبىِّ (ﷺ) ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ الكريمُ آياتٍ بَعْدَ آيات ، وكانَتْ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ فيه :

---

(١) المدثر : المغطى بثيابه ، وهو الرسول عليه السلام .

(٢) الرجز فاهجر : أبعد نفسك عن المعاصى .

(٣) لا تمنن تستكثر : لا تعط شيئا فتطلب أكثر منه .

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا » .

وَسأَبْقَى أَفْخَرُ أَنا بِأَنَّ بدايةَ نُزولِ الوَحْىِ . . نُزُولِ القُرآن ، كانَتْ فى لَيلتى أَنا لَيلَة القَدْرِ .

وَقَدْ كَرَّمنى الله ، وَذَكَرَنى فى الْقُرْآنِ وَعَظَّمَ قَدْرِى وَشَأْنى ، وَجَعَلنى لَيْلَةً مُبَارَكَةً .

وَمِنْ هُنَا . . يَنْتَظِرنى المسْلِمُونَ كلَّ عَامٍ فى أَيامِ رمضانَ الأَخيرةِ . . لأَنَّهم يَعْلَمُونَ أَن أَبْوَابَ السَّماءِ تُفْتَحُ حينَ أَصِلُ ، وأَنَّ الله يَسْتَجِيبُ فى لَيْلَتى كُلَّ دُعاءٍ .

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ » .

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ القَدْرِ . وَمَا أَدْراكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ . لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ فيها بإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِىَ حَتَّى مطلَعِ الفَجْرِ» . .

[صدق الله العظيم]

القصة الثالثة

- عنقـود عنب
- يحكى لنا عن
- رحلة الطائف

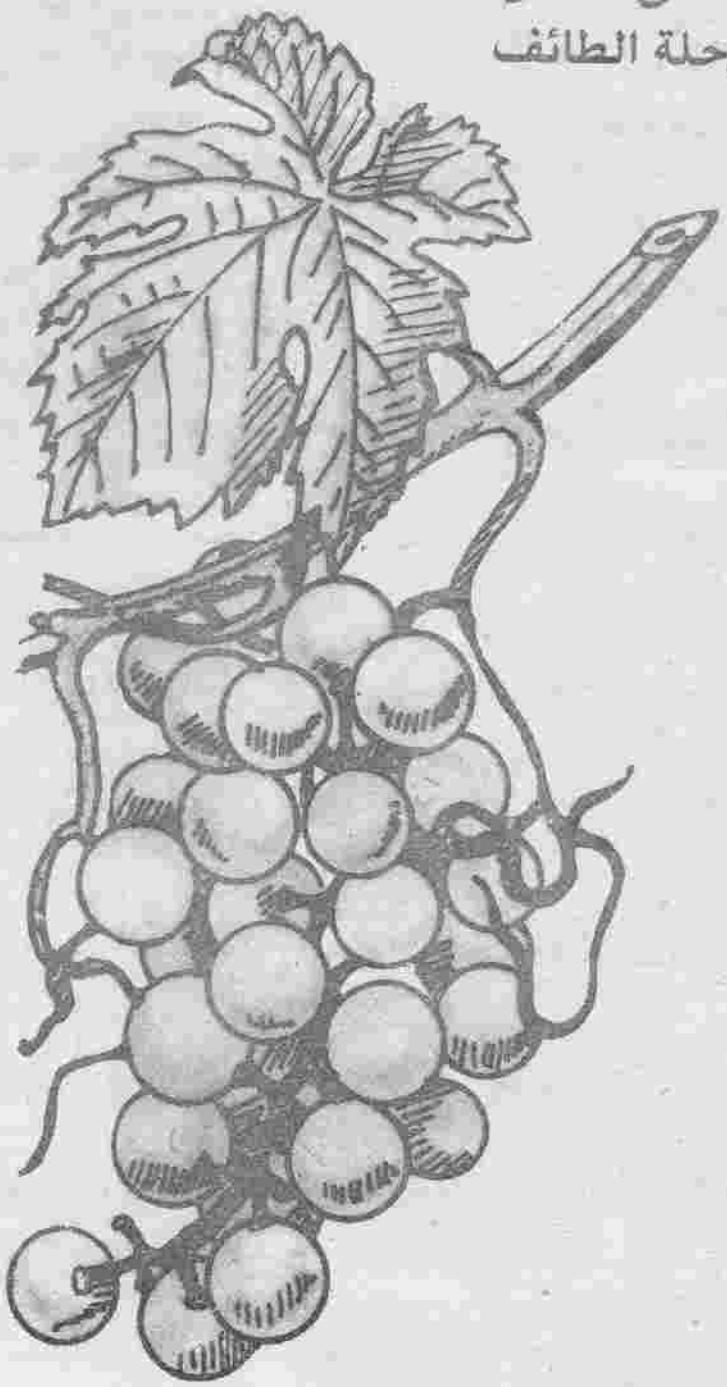

كنت أَتَدَلَّى مِنْ فَوْقِ كَرْمَتى [1] بِالطَّائِفِ . وَكَانَ يَمْلِكُ كَرْمَتى رَجُلٌ اسمُه « عُتْبَةُ بنُ رَبيعَة » وأَخوه « شَيْبَة ». وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ مَكَانى هذَا مُحَمَّداً رَسُولَ الله ، وَقَدْ جَاءَ إِلَى « بَنى ثَقِيف » بِالطَّائِف . . . جَاءَ مُتَخَفِّياً لاَ يَعْلَمُ بِهِ أَحد . كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ . وكانَ يَرْجُو أَنْ تَكُونَ « ثَقِيفٌ » أَقَلَّ تَعَصُّبًا وَأَكْثَرَ تَعَقُّلاً مِنْ قُرَيْشٍ .

وَمُنْذُ ظَهَرْتُ إِلَى الوُجُودِ بُرْعُمًا [2] صَغِيرًا ، تَتَكَوَّنُ حَبَّاتُه الْحُصْرُم ، وأَنا أَسْمَعُ عَنْ مُحَمَّدٍ مِنَ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ مَكَّةَ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بكَرْمَتى .

عَرَفْتُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ زَوْجَتُه خَدِيجَةُ ، ومِنَ الرِّجالِ أَبُو بَكْرٍ ، وَمِنَ الأَطْفَال عَلِيُّ بنُ أَبى طَالِب .

وَلَكِنِّى عَرَفْتُ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ كَانُوا عَدَدًا قَلِيلاً ، وأَنَّ أَغْلَبِيَّةَ قُرَيْشٍ لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ ، بَلْ سَخِرَتْ مِنْهُ ، وَقاوَمَتْهُ

---

(١) كرمتى : الكرمة . . . شجرة العنب .

(٢) البرعم : زهر النبات قبل أن يتفتح .

بِكُلِّ سَبِيل . وَقَدْ حاوَلتْ إِغْرَاءَهُ بالمُلْكِ وَالْمَالِ ، لِيَعْدِلَ عَنْ دَعْوَتِهِ ، ويَكُفَّ [1] عَنْ تَسْفِيهِ الأَصْنَامِ الَّتى كانَتْ تَعْبُدُها قُرَيْش .

وَسَمِعْتُ مِنْ جَالِس تَحْتى أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ مَعَ عَمِّه أَبى طَالب يقولون له :

ـ إِنَّ قُرَيْشًا تَعْرِضُ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهَا مَا تُرِيدُ مِنَ الْمَالِ ، عَلَى أَنْ تَتْرُكَ هٰذَا الدِّينَ الَّذِى تَدْعُو إِليه .

فأَجابَ (ﷺ) :

« وَاللهِ يَاعَمِّى ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فى يمينى وَالْقَمَرَ فى يَسَارِى عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هٰذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُه ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَه » .

ثُمَّ سَمِعْتُ من « عُتْبَةَ » صَاحِبِ كَرْمَتى ، أَنَّ قُرَيْشاً أَرْسَلَتْه أَيْضاً إِلَى مُحَمَّدٍ لِيَقُولَ لَهُ :

---

(١) يكف عن تسفيه الأصنام : يترك تحقير شأنها .

– إِنَّ قُرَيْشاً مُسْتَعِدَّةٌ . . . إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مَالاً أَنْ تُعْطِيكَ حَتَّى تُصْبِحَ أَغْنَاهُمْ . وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ شَرَفًا جَعَلُوكَ سَيِّدًا لَهُمْ لاَ يَفْعَلُونَ شَيْئًا إِلاَّ إِذَا أَخَذُوا رَأْيَكَ . وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُصْبِحَ مَلِكًا جَعَلُوكَ مَلِكًا وَأَجْلَسُوكَ عَلَى الْعَرْشِ . وَإِنْ كَانَ هذَا الْوَحْيُ مَرَضًا أَتَوْا لَكَ بِأَمْهَرِ الأَطِبَّاءِ لِعِلاَجِكَ حَتَّى تُشْفَى .

فَرَدَّ مُحَمَّدٌ على « عُتْبَةَ » يَتْلُو هذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِد » .

فَعَادَ عُتْبَةُ إِلَى قُرَيْشٍ يَقُولُ لَهَا :

سَمِعْتُ كَلاَماً لاَ هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلاَ هُوَ بِالسِّحْرِ ، وَلاَ هُوَ بِالْكَهَانَةِ .

وَطَلَبَ عُتْبَةُ إِلَى قُرَيْشٍ أَنْ تَتْرُكَ مُحَمَّدًا وَشَأْنَه قَائِلاً:

ـ لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلاَماً حَدَثاً [1] أَكْرَمَكُمْ خُلُقًا ، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا ، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً . . حَتَّى إِذَا كَبِرَ وَجَاءَكُمْ بما جَاءَكُمْ قُلْتُمْ : كَاذِبٌ وَسَاحِرٌ ! .

لَمْ تَنْفَعْ إِغْرَاءَاتُ قُرَيْشٍ لِمُحَمَّدٍ بِالمَالِ وَالمُلْكِ . واسْتَمَرَّ يَدْعُو لِدِينِ اللهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ . فَزَادَتْ قُرَيشٌ مِنْ إِيذَائِهَا لَهُ وَتَنْكِيلِهَا [2] بِهِ هُوَ وَأَتْبَاعه .

وَدَعَتْ إِلَى مُقَاطَعَتِهِ وَعَزْلِهِ هُوَ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوه . وَعَلَّقَتْ صَحِيفَةً مِن الْجِلْدِ فى الْكَعْبَةِ تَدْعُو فِيهَا النَّاسَ إِلَى ذٰلِكَ وَتَقُولُ لَهُمْ :

- لاَ سَلاَمَ وَلاَ كَلاَمَ مَعَ الْمُسْلِمِين .
- لاَ بَيْعَ لَهُمْ وَلاَ شِرَاءَ مِنْهُم .
- لاَ زَوَاجَ وَلاَ مُصَاهَرَةَ .
- لاَ تَعَامُلَ مَعَهُمْ مِنْ أَىِّ لَوْنٍ .

---

(١) غلاما حدثا : المراد غلاما صغيرا .
(٢) تنكيلها به : تعذيبها له .

وَلَمْ تَنْفَعْ هٰذِهِ المُقَاطَعَةُ أَيْضًا . خَاصَّةً وَأَنَّ خَمْسَةً مِنْ كِبَارِ رِجَالِ قُرَيْشٍ أَعْلَنُوا بَعْدَ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ مِنَ الْمُقَاطَعَةِ : أَنَّهُمْ لاَ يَعْتَرِفُونَ بِهَا ، وَمَزَّقُوا الصَّحِيفَةَ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهَا .

وَلٰكِنَّ نِهَايَةَ المُقَاطَعَةِ ، لَمْ تَصْرِف كُفَّار قُرَيْشٍ عَنِ اسْتِمْرَارِ التَّعْذِيبِ وَالإِيذاءِ لِمُحَمَّد وَأَتْبَاعِه . وَزَادَ التَّعْذِيبُ وَتَضاعَف الإِيذاءُ بَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ « أَبى طَالِبٍ» وَزَوْجَتِهِ«خَدِيجَة » .

فَقَدْ أَلْقَوْا عَلَى الرَّسُولِ ، وَهُوَ سَاجِدٌ فى صَلاَتِهِ ، أَمْعَاءَ شَاةٍ مَذْبُوحَة . . وَهُمْ يَضْحَكُون !

كَمَا وَضَعَ وَاحِدٌ مِنَ الكُفَّارِ ثَوْباً حَوْلَ عُنُقِه ، وكَاد يَخْنُقُهُ .

كُنْتُ أَسْمَعُ هٰذِهِ الأَخْبَارَ وَغَيْرَهَا مِن القَادِمِينَ مِنْ مَكَّة ، وَهُمْ جَالِسُونَ تَحْتى يَسْتَظِلُّونَ بِكَرْمَتى .

كَانَتْ هٰذِهِ الأَخْبَارُ الحَزِينَةُ تُؤْلِمُنى . . وكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَجدَ فُرْصَةً فى حَيَاتى القَصيرة أَرى فِيهَا مُحَمَّدًا . وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ يَطُولَ بى العُمْرُ عَلَى كَرْمَتى خَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْخُذَنى الكُفَّارُ وَيَعْصُرُونى خَمْرًا تَأْخُذُ بِعُقُولِهِمْ ، فَيَزِيدُوا فى عَذَابِ المسْلِمين . لِذٰلِكَ كُنْتُ أَتَصَوَّرُ فُرْصَتى فى لِقَاءِ مُحَمَّد ، وَقد حَقَّقَ اللهُ أَمَلِى . . إِذْ جَاءَ بِنَفْسِهِ إِلَى هُنَا لأَرَاه .

وَبِقَدْرِ مَا سَعِدْتُ بِرُؤْيَتِهِ ، حَزِنْتُ لِمَا حَدَثَ . وكِدْتُ أَبْكِى وَأَنْزِفُ دَمْعِى حِينَ رَأَيْتُ مَا جَرَى لَه . .

فَقَدْ جَلَسَ إِلَى أَشْرَاف « ثَقِيفٍ » ، يَعِظُهُمْ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الإِيمَانِ بِالله وَرَسُولِه ، وكِتابِهِ ، فَإِذَا هُمْ يَرُدُّونَه رَدًّا خَشِنًا ، وَيُغْلِظُونَ لَهُ القَوْل .

وَفى طَرِيقِ عَوْدَتِه إِلَى مَكَّةَ طَارَدَهُ صِبْيَةٌ صِغَارٌ لاَ يَعْقِلُون ، وَمَعَهُمْ بَعْضُ السُّفَهَاءِ ، يُحِيطُونَ بِالرَّسُولِ ، وَيَضْرِبُونَهُ بِقَسْوَةٍ وَيَقْذِفونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَيَشْتِمُونَهُ ،

وَيَهْزَؤُونَ بِهِ ، وَيُمْسِكُونَ بِهِ كُلَّمَا حَاوَلَ الجَرْى مُبْتَعِدًا عَنْهُمْ . . .

وَأَخِيرًا اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْلِتَ مِنْهُمْ ، وَأَنْ يَلْجَأَ إِلَى ظِلِّ الكَرْمَةِ الَّتى أَتَدَلَّى مِنْهَا ، وَيَقْعُد تَحْتَهَا فى تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ (١) وَسَمِعْتُهُ يَقُول :

« اللَّهُمَّ . . إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتى ، وَقِلَّةَ حِيلَتى ، وَهَوَانى عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين . اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىَّ فَلاَ أُبَالى » .

وَكَانَ « عُتْبَةُ » وأَخُوه « شَيبةُ » يَقِفان بالقُرب مِنْهُ وَيَسْمَعَانِ كَلِمَاتِه ، فَإِذَا « عُتبة » يطْلُبُ مِن غُلاَمِه «عدَّاس» أَنْ يَقْطِفَنى مِنْ فَوْق الكَرْمةِ ، وَيَضَعَنى فى طَبَقٍ، وَيُقَدِّمَنى إِلى « مُحَمَّد » (ﷺ) . . . شَعَرْتُ بِنَفْسى أَهْتَزُّ فَرَحًا ، فَوْقَ الغُصْنِ الَّذِى أَنَا عَلَيْهِ ،

---

(١) الإعياء : التعب .

وَغَمَرَتْنى السَّعَادَةُ وَأَنَا أَنْزِلُ مِنْ مَكَانى ، إِلَى الطَّبَقِ ، لِيَضَعَنى « عدَّاس » أَمام « مُحَمَّد » ، الَّذِى يَمُدُّ يَدَهُ الكَرِيمةَ وَيَقُول : بِسْم الله . .

وَيَعْجَبُ « عدَّاس » لهذِهِ الكَلِمَة الَّتى لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ قَبْل . فَيُبْدِى دَهْشَتَه للرَّسُولِ قَائِلاً : هَذَا كَلاَمٌ لاَ يَقُولُهُ أَهْلُ هٰذِهِ البِلاَد .

فَسَأَلَهُ الرَّسُول : وَمِنْ أَهْلِ أَىِّ بِلاَدِ اللهِ أَنْتَ ؟ .

قَالَ عدَّاس : مِنْ أَهْلِ « نينَوى » .

وَرَدَّ الرَّسُول : مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِح « يُونس بنِ مَتَّى » .

فَسَأَلَهُ عدَّاس : وَمَا يُدْرِيكَ مَن « يُونس بن متَّى » ؟ !

فَأَجَابَ الرَّسُول : كَانَ نَبِيًّا ، وَأَنا نَبِىّ .

فانْحَنَى « عدَّاس » على رَأْسِ « مُحَمدٍ » وَيَدِهِ ، وَهُوَ يُقَبِّلُه وَيَهْتِف :

ـ نَبِيّ . . نَعَمْ ، نَبِي . . لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَمِلَ أَحَدٌ مَا تَلْقَى إلاَّ فى سَبِيلِ الحَقِّ وَدِينِ الحَقِّ .

وانْفَرَطَتْ حبَّاتى بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَم ، وَأَنَا أَسْعَدُ عُنْقُودِ عِنَبٍ فى تَارِيخ الدُّنْيَا كُلِّهَا . . فَأَنَا قَدْ صِرْتُ طَعَامًا للرَّسُولِ بَعْدَ طُولِ عَذَابِه . . وَشَهِدْتُ إِيمَانَ « عدَّاسٍ » به وَبِرِسَالَتِهِ السَّمَاوِيَّةِ الْعَظِيمَةِ .

القصة الرابعة

- البُراق . . .
- يحكى لنا عن
- الإسراء والمعراج

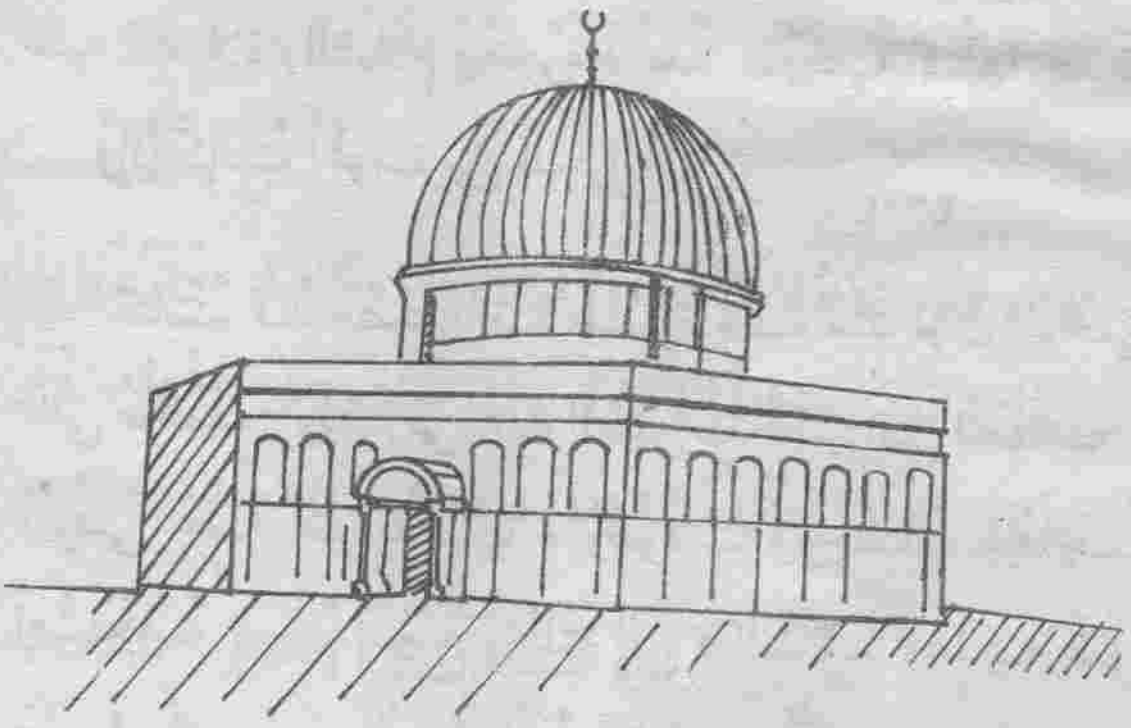

قَبلَ الصَّـوَاريخ ، وَقَبْلَ الأَقْمَار الصِّـنَاعيَّةِ بأَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وثلثِمائَةِ سَـنَة ، كُنْتُ أَنا . . الْبُراق !

اخْتَلَفَـتِ الـرِّوَايَاتُ فى وَصْفـى وَتَحْـديدِ شَـكْلِـى وَنَـوْعى . وَالمُهِمُّ أَنَّنى مِنْ صُنْعِ اللّهِ ، خَالِـق الأَرْضِ وَالسَّـمَوَات ، سُـبْحَانَهُ إِنَّهُ عَلى كُـلِّ شَـىْءٍ قديرٌ .

ركبَنى الأَنْبياءُ عَـلَيْهم السَّلام . وَلَكِنَّ لى مَـعَ مُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام مُعْجزَةً فَريدَةً ، وَقِصةً كُـلُّها حقيقَة . . وَإِنْ كَانَتْ أَغْرَبَ مِن الْخَيالِ .

كَانَتْ قَـدْ مَضَتْ اثْنَتا عَشْـرَةَ سَـنَةً مُنْذُ نَزَلَ الْوَحْـىُ عَلى مُحَمَّد . وَلَقىَ فى هَذِهِ السَّنوات الْكَثيرَ مِنَ الْعَذَاب . وَتُوُفِّـىَ عَمُّـهُ أبـو طالـب ، وَتُـوُفِّيَتْ زَوْجَتُـه ، وَهَاجَـرَ أَصْـحَابُـهُ ، وَلَمْ تَنْجَحْ رِحْلَتُهُ إِلى « الطَّائِف » وَلَكِنَّهُ ظَـلَّ عَلَى إِيمانِـهِ ، يَسأَلُ اللهَ الْعَوْنَ (١) وَالصَّبْرَ .

---

(١) العون : المساعدة .

بَعْدَ هَذِهِ السَّنواتِ مِنَ الأَحْدَاثِ ، حَدَثَتْ مُعْجزَتى مَعَ الرَّسُول (ﷺ) ، حَدَثَتْ رحْلَةُ الإِسْرَاءِ وَالْمعْرَاج ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ . . لَيْلَة ٢٧ مِنْ شهْرِ رَجَبَ .

وَفيهَا ذَهَبَ جبْريلُ إلى دَارِ الرَّسُولِ (ﷺ) ، وَأَتى بهِ إلى الْبَيْتِ الْحَرَامِ حَيْثُ كُنْتُ أَنْتَظِرُ . وَبَعْدَ أَنْ غَسَلَ جبْريلُ قَلْبَ الرَّسُولِ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، مَلأَ قَلْبَهُ بِالْحِكْمَةِ وَالإِيمَانِ . ثُمَّ ركبَنى الرَّسُولُ وَانْطَلَقْنَا ، وَفى صُحْبَتِنَا جِبْريلُ ، إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فى سُرْعةٍ خاطِفَة .

وَخارِجَ مَكَّةَ ، مَرَرْنا بِقَافِلَةٍ لِقُرَيش ، ضَلَّت نَاقَةٌ لَهَا ، فَأَرْشَدَهُم الرَّسُولُ (ﷺ) إلى مكانِها . وَمَرَرْنَا بِقَافِلَةٍ أُخْرَى نَفَرَتْ جِمالُها [1] وَكُسِرتْ سَاقُ جَمَلٍ مِنْها . وَمَرَرْنا بِقَافِلَةٍ ثَالِثَةٍ فى مُقَدِّمَتِها جَمَلٌ فَوْقَهُ كِيسَانِ أَسْوَدَانِ .

وفى الطَّرِيقِ رَأَى مُحَمَّدٌ (ﷺ) الكَثيرَ . وَكَانَ يسْأَلُ وَجبْريلُ عَليه السَّلامُ يُجِيبُ .

---

(١) نفرت جمالها : تفرقت وتباعدت .

رَأَى فَتاة جَمِيلةً فى ثِيابٍ فاخِرَة ، نَادَتْ : يَا مُحَمَّدُ . فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا . وَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : هَذِهِ الدُّنْيَا ، زُيِّنَتْ لك .

فَقَالَ الرَّسُول : لا حَاجَةَ لى فى الدُّنْيا .

وَعِندَما وَصَلْنا إلى « يَثْرِب » قَالَ جِبْرِيلُ : هَذِهِ يَثْرِبُ سَتُهَاجِرُ إِلَيها ، وَتُسَمَّى « المدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ » ، وَيَتَوَفَّاكَ الله فِيها .

وَمَرَرْنَا عَلى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَحْصدُونَ . وَبَعْدَ الْحَصَادِ يَعُودُ الزَّرْعُ كما كَانَ . فَسَأَلَ الرَّسُولُ جِبْرِيلَ : مَا هَذَا ؟

قَالَ جِبْرِيل : هَؤُلاءِ هُم المُجَاهِدُونَ فى سبيلِ اللهِ ، تُضَاعَفُ لَهُم الْحَسَنَةُ إِلى سَبْعمائَةِ ضعْفٍ .

وَرَأَيْنَا مَنَاظِرَ لِعَذَابِ تَارِكى الصَّلاةِ وَالزَّكاةِ .

وَهَبَّتْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ تحْمِلُ رائِحَةً كَالْعِطْرِ ، وَسَمِعْنا صَوْتًا ، فَسَأَلَ مُحَمَّدٌ (ﷺ) : مَا هَذَا يَا جِبْرِيل ؟

فَأجابَ جِبْرِيل : هذا صَوْتُ الْجَنَّةِ تَقُولُ :
« رَبِّ آتِنى مَا وَعَدْتَنى . . . فَقَدْ كَثُرَتْ غُرَفى وَحَرِيرِى ، وَذَهبى وَفِضَّتى ، وَأَكْوَابى وَأَبارِيقى ، وَعَسَلِى وَلَبَنى وَمائى . . آتنى يَارَبِّ مَا وَعَدْتَنى به » .
وَفى وَادٍ آخَرَ ، شَمَمْنَا رَائِحَةً كَرِيهَةً ، وَسَمِعْنَا صَوتًا مُنكرًا . وَسَأَلَ الرَّسُولُ (ﷺ) : مَا هَذَا يَاجِبْرِيلُ ؟
فَأَجَابَ جِبْرِيل : هَذَا صَوْتُ جَهَنَّم تُنادى :
« رَبِّ آتِنى مَا وَعَدْتَنى . فَقَدْ كَثُرَتْ سَلاسِلى وَأَغْلالى[1] وَاشْتَدَّ حَرِّى . فَآتنى مَا وَعَدْتَنى » .

وَوَصَلْنَا « الْقُدْسَ » فى لَمْحِ الْبَصَرِ . وَأَمْسَكَ مُحَمَّدٌ (ﷺ) بى - أَنا الْبُرَاق - وَرَبطَنى فى حَلْقَةٍ فى صَخْرَةٍ عَالِيَة ، مَازَالَتْ قَائِمَةً إِلى يوْمِكُمْ هَذَا ، وَقَدْ بَنى الْمُسْلِمُونَ فَوْقَها قُبَّة عَالِيَةً . وَتَرَكَنى فى مكانى وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ الأَقْصَى . وكان الأَنْبِيَاءُ والرُّسُلُ يَنْتَظِرُونَهُ فيه . فَصَلَّى بِهم إِمامًا لَهُمْ وَهُمْ صُفُوفٌ مِنْ خَلْفِه .

---

(١) أغلالى : جمع غُلّ وهو طوق من جلد أو حديد . يجعل فى اليد أو فى العنق .

وَبَعْدَ الصَّلاةِ ، قَدَّمَ جِبْرِيلُ للرَّسُولِ « مِعْراجًا » يَصْعَدُ فيه إلى السَّماءِ . . فى رِحْلَةٍ ثانيةٍ سُمِّيَت الْمعْراج.

وقَدْ صعَدَ الرَّسُولُ إلى السَّماءِ الأُولى ، وكانَ فيها أَبُونَا آدَمُ الَّذى رَحَّبَ بِالرَّسُولِ . وفى السَّماءِ الثَّانية ، قَابَلَ سَيِّدَنا عيسى ابْنَ مَرْيَم ، ويحْيَى ، وزكريَّا . . . عليهم السَّلام ، وفى السماءِ الثالثة قابل سَيِّدَنا يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلامُ . وفى السَّماءِ الرَّابعةِ قَابَل سَيِّدَنا إِدْريسَ . وفى السَّماءِ الْخَامسَةِ قَابَلَ سَيِّدَنا هَارُونَ بْنَ عِمْرانَ . وفى السَّماءِ السَّادِسَةِ قَابَلَ سَيِّدَنا مُوسى بْنَ عِمْرَانَ . وفى السَّماءِ السَّابعَةِ قَابَلَ سَيِّدَنا إِبْرَهِيمَ الْخَليل ، وكَانَ كُلٌّ مِنْهُم يَسْتَقْبِلُ النَّبىَّ مُرَحِّباً قَائِلاً : مَرْحَبًا بِالنَّبىِّ الصَّالِحِ والأَخِ الصَّالِح .

ثُمَّ رَفَعَ اللهُ نَبِيَّهُ الْمُصْطَفَى إلى « سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » . . إلى الْحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ الْعَلِيَّة . فَسَجَدَ الرَّسُولُ للهِ الْوَاحِدِ حَمْدًا وَشُكْرًا ، لأَنَّهُ أَوْصَلَهُ إلى مَكانٍ لَمْ يَصِلْ إِلَيهِ أَحَدٌ غيْرُه مِنَ الرُّسُلِ .

وَهُنا شَرَعَ اللهُ الصَّلاةَ عَلى المُسلمين ، خَمْسَ صَلَواتٍ فى الْيَوْمِ ، وَتَكُونُ الْكَعْبَةُ قِبْلَتَهُمْ فيها ، فَيَتَّجِهُون إِلَيْهَا فى صلاتِهِمْ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلَ النَّبىُّ (ﷺ) إلى الصَّخْرَةِ الشَّرِيفَةِ . وَوَدَّعَ الأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ .

ثُمَّ رَكِبَنى ـ أَنا البُرَاق ـ مَرَّةً أُخْرَى ، عَائِدًا إلى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَتَمَّت بِذَلِكَ رِحْلَةُ الإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاج ، ثم وَدَّعْتُهُ ، وَذَهبَ إلى بَيْتِهِ .

وَفى الْيَوْمِ التَّالى ذَهَبَ إلى الْكَعْبَة . وَقَصَّ عَلى النَّاسِ قِصَّةَ رِحْلَتِهِ . . قِصَّةَ الإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاج . . فَلَمْ يُصَدِّقْهُ كُفَّارُ قُرَيشٍ ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَكْذِيبًا لَهُ «أبو جَهْل» . وَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُم :

ـ إِنَّنَا نَذْهَبُ إِلى الْقُدْسِ فى شَهْرٍ كَامِلٍ ، وَنَعُودُ فى شَهْرٍ كَامِلٍ ، فَكَيْفَ يَذْهَبُ مُحَمَّدٌ وَيَعُودُ فى لَيْلَةٍ وَاحِدة ؟!

وَفى هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَصَلَ أَبُو بَكْرٍ إلى الْكَعْبَةِ ،

وَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَ الرَّسُول . . وَسَمِعَ مِنَ الْكُفَّارِ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ عَنْ رِحْلَتِهِ ، وَسَمِعَ مِنْهُمْ تَكْذِيبَهُمْ وَعَدَمَ تَصْدِيقِهِم لهُ .

وَكَانَ الْجِدَالُ مُسْتَمِرًّا بَيْنَ الْكُفَّارِ وَبَيْنَ الرَّسُولِ . وَتَحَدَّوْهُ فى النِّهَايَةِ أَنْ يَصِفَ لَهُم الْمَسْجِدَ الأَقْصَى ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَمْ يَزُرْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيه أَبَدًا . فَبَدَأَ مُحَمَّدٌ الْوَصْف ، وَكَأَنَّ الْمَسْجِدَ الأَقْصَى أَمَامَه يَرَاهُ وَيَنْظُرُ إِلَيهِ . وَوَصَفَهُ جُزءًا جُزْءًا بِدِقَّةٍ أَذْهَلَت الْجَمِيعَ [1] ، وَهَتَفَ أَبُوبَكْرٍ : صَدَقْتَ يَارَسُولَ الله .

وزِيَادَةً عَلى الْوَصْفِ الدَّقيقِ ، أَضَافَ لَهُمْ الرَّسُولُ إِثْبَاتَاتٍ أُخْرَى . فَحَدَّثَهُم عَنْ الْقَوَافِلِ الَّتِى رَآهَا عِنْدَ مَشَارِفِ مَكَّةَ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْوَقْتِ عَادَت هَذِهِ الْقَوافِلُ وَوَصَلَتْ مَكَّةَ . وَعَادَتْ مَعَها النَّاقَةُ الَّتِى كَانَتْ ضَلَّتْ الطَّرِيقَ ، والجملُ الْمكْسُورُ السَّاق ، والْجملُ الَّذى يحْمِلُ كيسَيْن أَسْوَدَين . . تمامًا كما أَخْبَرَهُم الرَّسُولُ .

---

(١) أذهلت الجميع : أدهشتهم .

ذُهِلَ الكُفَّارُ وَلَمْ يَجِدُوا مَا يَقولونَهُ . وَارْتَفَعَ صَوْتُ أَبى بَكْرٍ يُرَدِّدُ :

ـ صَدَقْتَ يَارَسُولَ اللهِ . وَصَدَّقْتُ كُلَّ مَا قُلْتَ .

فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ الْكَرِيمُ : أَنْتَ الصِّدِّيقُ . يَا أَبا بَكْرٍ .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، يُلَقَّبُ أَبُو بَكْرٍ بِلَقَبِ الصِّدِّيقِ .

هَذِهِ هِىَ حِكايَتى ـ أنا البُرَاق ـ مَعَ رَسُولِ الله فى لَيْلَةِ الإِسْرَاءِوَالمِعْرَاج . حِكايَةٌ صَادِقَةٌ حقيقيَّةٌ . سَبَقَتْ عَصْرَ الصَّوارِيخِ وَالأَقْمَارِ الصِّناعيَّةِ بِأَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَثلثمائَةِ عَام .

« سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المسْجِدِ الْحَرَامِ إِلى المسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

[صدق الله العظيم]

القصة الخامسة

- حمامة الغار
- تحكى لنا عن
- هجرة الرسول عليه السلام

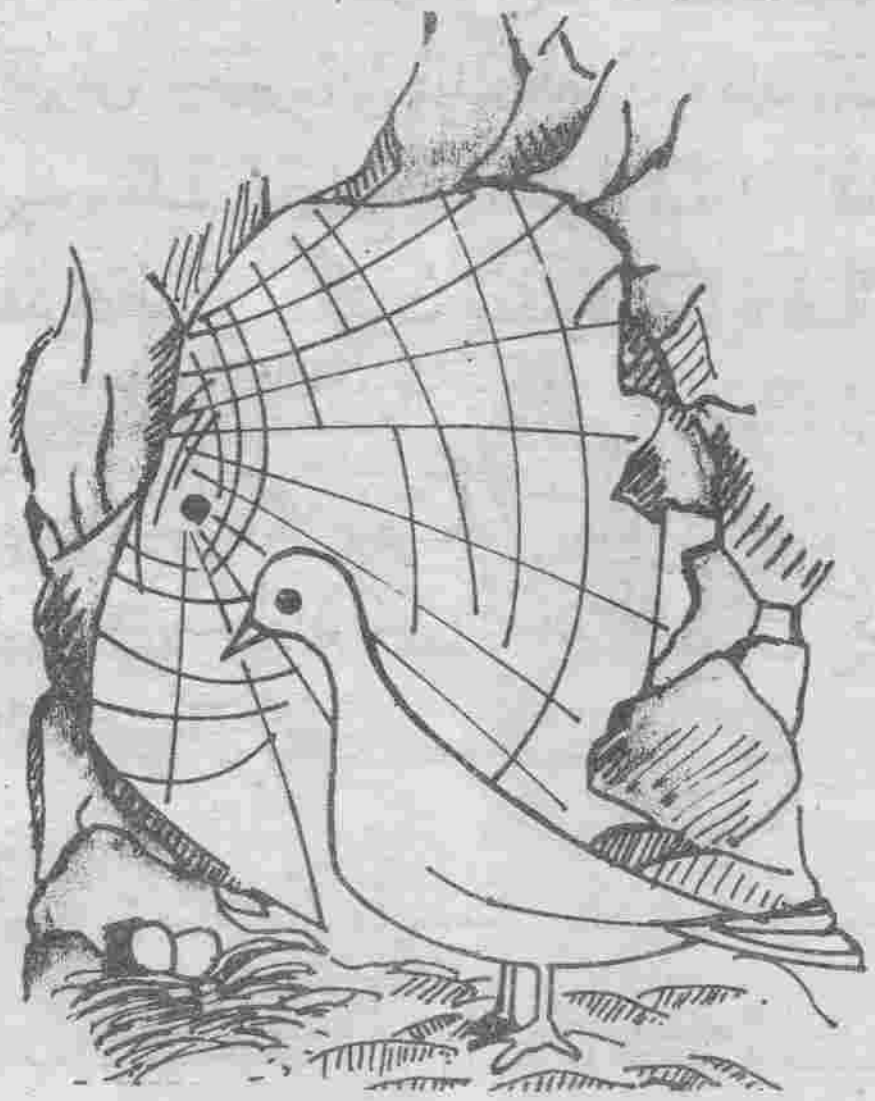

أَنا حمامةٌ بيْضَاءُ ، وَديعَةٌ ، طَيِّبَةٌ . . أَطيرُ وَأُرَفْرِف ، وَأَهْبطُ لأَلْتَقِطَ الْحَبَّ مِنْ سَاحَةِ الْكَعْبَةِ ، لاَ أَخافُ أَحَدًا ، وَلاَ يَخَافُ مِنِّى أَحَدٌ . وَكُنْتُ فى ذَلِكَ الصَّبَاح الْجَميل أَطيرُ فَوْقَ غَارٍ فى الطَّريق بَيْنَ مَكَّة وَالْمَدينَةِ . كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَكان أَضَعُ فيهِ الْبَيْضَ ، لِكَى أَرْقُدَ عَلَيْهِ ، ليَفْقِسَ ، وَتَخْرُجَ مِنْهُ حَمَامَتَانِ صَغيرتانِ . وَلَقَدْ رَأَيْتُ هُنَا وَهُنَاكَ ثَعَابينَ كَثيرَةً ، وَحَيَّاتٍ فى ذَلِكَ الْغَار ، وَكَانَ يَبْدُو أَنَّها تَنْتَظرُ شَيئًا . وَلَمْ أَسْتَطعْ أَنْ أَقْتَربَ مِنْها ، لأَنها إِنْ أَمْسكَتْ بى ابْتَلَعَتْنى ، وَلَقيتُ عَنْكَبُوتًا رَقيقًا ، فَسَأَلْتُهُ :

ـ لِمَاذَا تَجْتَمعُ كُلُّ هَذِهِ الثَّعَابِينِ ؟

قَالَ : عِنْدَهُمْ أَوَامِرُ مِنَ الثُّعْبَانِ الْكَبير فى مَكَّةَ لِكَى يَقْطَعُوا الطَّريقَ عَلى رَجُلَيْن .

سَأَلْتُهُ : مَنْ هُمَا ؟

أَجَابَ : لاَ أَعْرف . . وَأَنْتِ يَا حمامَةُ تَسْتَطيعينَ

الطَّيَرَانَ إِلى بَعيد ، وَيُمْكِنُكِ أَنْ تَعْرفى .

طِرْتُ ، وَارْتَفَعْتُ فى الجَوِّ . وَسَافَرْتُ مَسافَةً طَوِيلَةً قَبْلَ أَنْ أَرَى الْمُهَاجِرِين :

رَأَيْتُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ . . وَكَانَ الْحَدِيثُ يَدُورُ بَيْنَهُمَا عَنْ مَكانٍ يَسْتَرِيحانِ فِيهِ وَيَخْتَفِيَانِ عَن الْكُفَّارِ الَّذينَ يُطَارِدُونَهُما . . وَفَكَّرَا فى الْغَارِ فَطِرْتُ أَدُلُّهُما عَلَيْه ، وَأُحَاوِلُ أَنْ أُنظِّفَهُ عَلى قَدْرِ مَا أَسْتَطِيعُ. وَرُحْتُ أَنْقَضُّ [1] عَلَى الْحَيَّاتِ أَنْقُرُهَا ، فَدَخَلَتْ شُقُوقَها ، وأَبْلَغْتُ الْعَنْكَبُوت بالأَمْر ، فَأَبْدَى سُرُورَهُ لاسْتِقْبَالِ هَذَيْنِ الضَّيْفَيْن الْكَرِيمَيْنِ ، وَانْتَظَرْتُ وَهُوَ مَعِى ، وَكُنَّا قَلِقَيْنِ عِنْدَمَا تَأَخَّرَا ، فَقَدْ خِفْنا عَلَيْهِما مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ . وَلَكِنَّهُما وَصلا بِخَيْرٍ ، وَدَخَلاَ الْغَار .

وَسَدَّ أَبُوبَكْرٍ شُقُوقَ الْحَيَّاتِ وَبَقِىَ شَقٌّ تَمَنَّيتُ أَنا الْحَمَامَةُ لَوْ أَنَّنى أَسُدُّهُ بِجِسْمِى . وَفَكَّر

---

(١) أنقضُّ : أهجم .

الْعَنْكَبُوتُ أَنْ يُغْلِقَه بِخُيُوطِهِ ، لَكِنَّ أَبَا بَكْرٍ سَدَّهُ بِقَدَمِهِ وَجَلَسَ مِنْ فَوْقِهِ .

وَكُنْتُ أَطِيرُ هُنَا وَهُنَاك ، فى قَلَقٍ وَخَوْف ، وَسَأَلَنى الْعَنْكَبُوتُ .

ـ لِمَاذَا لاَتَهْدَئِين ؟ وَلِمَاذَا لاَتَبْحَثِينَ عَنْ مَكانٍ تَضعِينَ فِيه الْبَيضَ ؟ !

قُلْتُ إِنِّى خَائِفَة مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ . أُرِيدُ أَنْ أَرْقُبَ الطَّرِيقَ خَشْيَةَ أَنْ يَصِلُوا إِلى الْغَارِ .

وَظَلَلْتُ أَطِيرُ نَحْو مَكَّة ، وَأَقْطَعُ مَسَافَةً طَوِيلَة ، ثُمَّ أَعُودُ . وَرَجَعْتُ آخِرَ مَرَّةٍ خَائِفَةً أَرْتَجِفُ وَأَرْتَعِشُ . وَأَسْرَعْتُ إِلى الْعَنْكَبُوتِ أَقُولُ لَهُ .

ـ تَصَوَّرْ . الأَشْرَارُ قَادِمُونَ . لَوْ رَأَوْا مُحَمَّدًا وصَدِيقَهُ ، لَنْ يفْلِتا مِنْهُم . مَاذَا نَفْعَل ؟

سَكَتَ الْعَنْكَبُوتُ قَليلاً يُفَكِّرُ ، ثُمَّ أَجَابَ :

ـ سَوْفَ أَنْسجُ خُيُوطِى عِنْدَ الْبَابِ لأُغْلِقَهُ .

وكِدْتُ أَضحَكُ لأَنَّهُ يَتَصَوَّرُ أَنْ خُيُوطَهُ تغْلِقُ الْبَابَ . وَلَكِنِّى لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَسْرَعْتُ مَعَهُ ، وَرُحْتُ أَنْقُلُ عُشِّى ، وَبَيْضى ، وَعِنْدَ الْبَاب رَقَدْتُ فَوْقَ الْبَيْضِ ، وفى نَفْسِ الْوَقْتِ جَاءَ الْكُفَّارُ ، وَعِنْدَ بَابِ الْغَارِ وَقَفُوا يتساءَلون :

ـ هَلْ دَخَلَ مُحَمَّدٌ وَصَاحِبُه الْغارَ ؟

ـ ربَّما. . . .

ـ لابُدَّ أَنَّهُما دَخَلا الْغَارَ . .

يَرُدّ آخَرُ : لا أَظُنُّ . . . إِنَّـهُ مَكانٌ مِلِـىءٌ بالْحَيَّاتِ وَالثَّعَابِين . .

وَتَسْتَمِرُّ الْمُنَاقَشَةُ : نَدْخُلُ . . . لاَنَدْخُلُ . . نَدْخُلُ . . لاَنَدْخُلُ . وَارْتَفَعَ صَوْتٌ يُنْقِذُنا مِمَّا نَحْنُ فيهِ . قَالَ الصَّوتُ :

ـ كَيْفَ نَدْخُلُ هَذَا الْغَارَ وَلَمْ يَدْخُلْهُ أَحَدٌ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ ؟ !

سَأَلُوهُ : كَيْفَ عَرَفْتَ هَذَا ؟ !

أَجَابَ : انْظُرُوا . . الْعَنْكَبُوتُ نَسَجَ خُيُوطَهُ بالبَاب ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ دَخَلَ لَتَقَطَّعَتْ هَذِهِ الْخُيُوطُ . وَالْحَمَامَةُ رَاقِدَةٌ فى عُشِّها عَلى بَيْضِها ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ مَرَّ مِنْ هُنَا لَطَارَت الْحَمَامَةُ ، وَانْكَسَرَ الْبَيْضُ . . إِنَّ أَحَداً لَمْ يَدْخُلْ هَذا الْغَارَ مُنْذُ وَقْتٍ بَعيدٍ .

قَالُوا لَهُ : صَدَقْتَ . . لاَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا هُنا .

وَبَدَأَتْ أَقْدَامُهُمْ تَخْطُو بَعيدًا عَن الْغَار ، وَابْتَعَدَتْ، وابتَعَدَتْ . . . . وَأَنَا وَالْعَنْكَبُوتُ نَشْعُرُ بِرَاحَةٍ كَبيرَةٍ كُلَّما بَعُدَ وَقْعُ أَقْدَامِهِمْ . وَمَا إِنْ غَابُوا عَنْ الأَنْظَارِ حَتَّى طِرْتُ أُصَفِّقُ بِجَنَاحَىَّ فَرَحًا . وَرَاحَ الْعَنْكَبُوتُ يَرْقُصُ طَرَبًا [1]

---

(١) الطرب : الفرح الشديد .

وَسَطَ خُيُوطِهِ . وَاسْتَيْقَظَ (ﷺ) لِيَضَعَ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ مَكَانَ لَدْغَةِ الْحَيَّةِ فى قَدَمِ أبى بكْرٍ ، فَيَشْفَى ، فَتَزدادُ فَرْحَتُنا .

أنا وَالْعَنْكَبُوتُ ! !

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَرَاحَ النَّبى وأَبُو بكرٍ ، قَامَا لِكَى يُواصِلاَ رحْلَتَهما ، وَطِرْتُ ـ أنا الْحمَامَة ـ مِن فَوقهما لِمَسافَةٍ طَويلة ، وأَنا أُرَفْرِفُ بجنَاحَّى ، وأَقُولُ لَهُما مِنْ قَلْبى : مَع السَّلاَمَةِ . .

« إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فقدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذ أَخْرَجَهُ الَّذينَ كَفَرُوا ثَانىَ اثنَيْنِ إِذ هُمَا فى الْغَارِ إِذ يَقُولُ لِصَاحبِهِ : لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا . فَأَنْزَلَ اللهُ سكينَتَهُ عَليهِ وَأَيَّدَهُ بجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هى الْعُلْيَا . وَاللهُ عَزيزٌ حَكيمٌ » .

[صدق الله العظيم]

القصة السادسة

- ناقةُ الرسول
- تحكى لنا عن
- حادث الهجرة

وَ أَنَا ـ أَيْضًا ـ مِثْلُ الْجَمَلِ زَوْجِى ، سَفِينَةُ الصَّحرَاءِ . أَمْشِى فِيهَا بِلاَ تَعَبٍ وَلاَ عَطَشٍ ، وَأَتَحَمَّلُ السَّيْرَ لِمَسَافَاتٍ طَوِيلَةٍ ، وَكُنْتُ أَعِيشُ فِى مَكَّةَ ، فِى الْوَقْتِ الَّذِى ظَهَرَتْ فِيهِ دَعْوَةُ « مُحَمَّدٍ » إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَإِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ . وَكَانَ يَمْلِكُنِى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، صَدِيقُ الرَّسُولِ (ﷺ) .

وَعِنْدَمَا قَرَّرَ « مُحَمَّدٌ » وَأَبُو بَكْرٍ الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ الْكُفَّارُ قَتْلَ الرَّسُولِ ، جَاءَ بِى الدَّلِيلُ إِلَى بَابِ الغَارِ ، مَعَ أُخْتٍ لِى ، أَقْوَى وَأَسْرَعَ . وَرَكِبَنِى الرَّسولُ (ﷺ) ، وَرَكِبَ أَبُوبَكْرٍ أُخْتِى . وَسِرْنَا فِى الطَّرِيقِ إِلَى « يَثْرِبَ » . وَلَمْ أَشْعُرْ بِتَعَبٍ طَوَالَ الطَّرِيقِ . كَمَا أَنَّ الْحَرَّ لَمْ يُضَايِقْنِى ، بَلْ كُنْتُ أَسِيرُ خَفِيفَةً سَعِيدَةً ؛ لأَنِّى أَحْمِلُ أَعْظَمَ مُهَاجِرٍ فِى أَعْظَمِ رِحْلَةٍ .

وَرَأَيْتُ الْكَثِيرَ مِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ خِلاَلَ هذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ . لَقَدْ رَأَيْتُ الْحَمَامَةَ

وَالْعَنْكَبُوتَ فَوْقَ بَابِ الْغَارِ ، كَأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَدْخُلْهُ . وَكَيْفَ لَحِقَ بِنَا « سُرَاقَةُ بْنُ مَالِك » عَلَى فَرَسِهِ . وَرَأَيْتُ مَنْظَراً لَمْ تَرَهُ عَيْنٌ مِن قَبْلُ ، حِينَ أَشَارَ الرَّسُولُ (ﷺ) بِأُصبُعِهِ فَغَاصَتْ [1] قَوَائِمُهُ فِى الرِّمَالِ ثَلاَثَ مَرَّات

وَشَاهَدْتُ عنزة « أُمِّ معْبد » . . عَنْزَةً نَحِيلَةً هَزِيلَةً . وَعِنْدَمَا لَمَستْهَا يَدُ النَّبِىِّ (ﷺ) قَدَّمَتْ لَبَنًا غَزِيرًا [2] يَكْفِى الْكَثِيرِينَ وَيَفِيضُ [3] .

كَانَ كُلُّ شَىءٍ فِى رِحْلَتِنَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ « مُحَمَّدٍ » وَعَلَى أَنَّ اللهَ معَهُ ، وَعَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَنْ يَسْتَطِيعُوا التَّغَلُّبَ عَلَيْهِ . وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْكِى لَكُمْ الْكَثِيرَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِى كَثِيرًا مَا سِرْتُ فِيهَا . وَكُنْتُ أَقْطَعُ الرِّحْلَةَ فِى أَحَدَ عَشَرَ يَوْماً . وَلَكِنِّى فِى هَذِهِ الْمَرَّةِ قَطَعْتُهَا فِى ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ، مَعَ أَنَّنَا نَسِيرُ لَيْلاً وَنَخْتَفِى نَهَاراً ، لأَن كُلَّ الْعُيُونِ تَرْصُدُنَا [4] وَكَثِيرُونَ يَبْحَثُونَ عَنَّا ، وَتَمَنَّيْتُ عَلَى اللهِ أَنْ أُتِمَّ هَذِهِ الرِّحْلَةَ بِالسَّلاَمَةِ .

---

(١) غاصت : نزلت .
(٢) غزيرا : كثيرا .
(٣) يفيض : يزيد .
(٤) ترصدنا : ترقبنا وتبحث عنا .

وَاقْتَرَبْنَا مِنْ « يَثْرِبَ » . وَظَهَرَ نَخِيلُهَا وَأَشْجَارُهَا مِنْ بَعِيد . وَشَعَرْتُ بِالْبَهْجَةِ [1] وَالْفَرْحَةِ ، لأَنَّ الرَّسُولَ نَجَا مِنْ أَعْدَائِهِ . وَرُحْتُ أَسْأَلُ نَفْسِى عَنْ أَهْلِ « يَثْرِب » ، وَكَيْفَ يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَقَدْ عَلِمُوا وَلاَ شَكَّ بِخُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَيْهِمْ . وَكَانَتِ الشَّمْسُ تَتَوَسَّطُ السَّمَاءَ حِينَ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ فَوْقِ رَبْوَةٍ [2] عَالِيَةٍ يَصِيحُ :

ـ هَذَا صَاحِبُكُمْ قَدْ جَاءَ . . هَذَا صَاحِبُكُمْ قَدْ جَاءَ .

وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتٌ تُهَلِّلُ وَتَهْتِفُ مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهَا :

ـ اللهُ أَكْبَرُ . . اللهُ أَكْبَرُ .

وَأَحْسَسْتُ بِالأَرْضِ تَهْتَزُّ لِهَذَا الْهُتَافِ ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا تُرَدِّدُ مع الْمُسْتَقْبِلِين : وَنَزَلَ عَنِّى « مُحَمَّدٌ » وَجَلَسَ مَعَ أَبِى بَكْرٍ فِى ظِلِّ نَخْلَةٍ ، وَالنَّاسُ يَتَدَفَّقُونَ خَارِجِينَ مِنْ يَثْرِبَ ، إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الرَّسُولُ (ﷺ) . وَكَثِيرُونَ مِنْهُمْ أَحَبُّوهُ وَتَبِعُوهُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرَوْهُ أَوْ يَعْرِفُوهُ . .

---

(١) البهجة : الفرح والسعادة .

(٢) الربْوَة : المكان المرتفع .

وَسَأَلَتْ إِحْدَى النِّسَاءِ جَارَتَهَا :

ـ أَيُّهُمَا النَّبِىُّ ؟ وَأَيُّهُمَا أَبُوبَكْرٍ ؟

وَكَانَ الظِّلُّ قَدْ زَالَ عَنْ الرَّسُولِ (ﷺ) ، فَقَامَ أَبُوبَكْرٍ يُظَلِّلُهُ بِرِدَائِهِ . فَعَرَفَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الْجَالِسَ هُوَ « مُحَمَّدٌ » (ﷺ) . وَأَقْبَلَ النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَى الْحَقِّ ، فَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ ، يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَنْشُرُوا السَّلامَ ، وَيُطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَأَنْ يَتَصَادَقُوا وَأَنْ يَتَحَابُّوا ، وَأَنْ يُصَلُّوا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

ثُمَّ قَامَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وَرَكِبَنِى . وَأَدْهَشَنِى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقُودُنِى ، بَلْ تَرَكَ زِمَامِى . . وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُحِيطُونَ بِنَا، وَسَارَ مَوْكِبُنَا . وَأَعْذُبُ نَشِيدٍ فِى الدُّنْيَا يَرْتَفِعُ مِنْ أَفْوَاهِ أَحِبَّاءِ اللهِ . أَطْفَالِ يَثْرِب، كَانُوا يُنْشِدُونَ وَيُغَنُّونَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لله دَاعْ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينا جِئْتَ بالأَمْرِ الْمُطَاعْ
جِئْتَ شَرَّفْتَ الْمَدِينَه مَرْحَباً يَا خَيْرَ دَاعْ

وَسَارَ الْمَوْكِبُ ، وأنا أتهادى [1] بَيْنَ الْجُمُوعِ ، وَالْحُبُّ يُطِلُّ مِنَ الْعُيُونِ ، وَالابْتِسَامَاتُ تَمْلَأُ الْوُجُوهَ . وَدَخَلْنَا الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا بِكُلِّ أُسْرَةٍ تُرِيدُ الرَّسُولَ (ﷺ) أن يُقِيم عِنْدَهَا :

- أَقِمْ عِنْدَنَا يَارَسُولَ اللهِ . .
- لاَ . . سَيُقِيمُ الرَّسُولُ عِنْدَنَا نَحْنُ . .
- سَتَأْخُذُ بِالنَّاقَةِ نقُودُهَا إِلَى دَارِنَا . . . إلخ

وَطَلَبَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أَن يَتركونِي . . وَيُفسِحُوا لِيَ الطَّرِيقَ . . إِلَى أَن أَقِفَ حَيْثُ يَشَاءُ اللهُ . فى مَكَانٍ مُعَيَّنٍ . . وَرَأَيْتُنِى لاَ أَسْتَطِيعُ أَن أُسَيْطِرَ عَلَى أَقدَامِى . . وَأَحْسَسْتُ أَنَّ إِرَادَةً خَفِيَّةً تَقُودُنِى إِلَى حَيْثُ لاَ أَدْرِى . وَفَجْأَةً شَعَرْتُ بِأَنَّنِى لاَبُدَّ مِنْ أَن أَسْتَرِيحَ فى مَكَانٍ وَقَفتُ عِندَهُ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَن أَتركَهُ بَلْ بَرَكتُ فِيهِ .

وَهُنَا نَزَلَ عَنِّى رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ، لِيَسْأَل :

- مَنْ صَاحِبُ هذِهِ الأَرْضِ ؟

---

(١) أتهادى : المراد أمشى فى لين ورفق .

قَالُوا : إِنَّهَا لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ يَرْغَبَانِ فى أن يُهْدِيَاهَا لَكَ يَارَسُولَ اللهِ . . وَلكِنَّ الرَّسُولَ (ﷺ) اشْتَرَاهَا مِنْهُمَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا ، وَبَيْتاً لِسُكْنَاهُ .

وَقَدْ رَأَيْتُ الْكَثِيرَ مِنْ حُبِّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ النَّبِىُّ (ﷺ) « الأَنْصَار » لِضُيُوفِهِم الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِمْ مِنْ مكة . كَمَا لَقِيْتُ الْكَثِيرَ مِنْ التَّكْرِيمِ ، لأَنِّى حَمَلْتُ رَسُولَ اللهِ خِلاَلَ هذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلأَنِّى نَاقَةٌ مُبَارَكَةٌ سَارَتْ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ لَهَا اللهُ أَنْ تسير ، وَبَرَكَتْ حَيْثُ أَرَادَ اللهُ أَنْ تَبْرُكَ . .

القصة السابعة

- بـئر « بدر »
- تحكى لنا عن
- معركة بـدر

اسْمِى « بَدْر » وَمَكَانِى بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ . يَقْصِدُنِى الْمُسَافِرُونَ وَالرُّعَاةُ مِنْ أَجْلِ الْمَاءِ . اسْتَيْقَظْتُ يَوْمًا لأَجِدَ الْجَزِيرَةَ العَرَبِيَّةَ كُلَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِّى وَعَنْ الْمَعْرَكَةِ الَّتى شَهِدْتُهَا ، وَالَّتى حَمَلَتِ اسْمِى فى التَارِيخ مُنْذُ « ١٧ رَمَضَانَ » مِنَ الْعَامِ الثَّانِى لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ . وَقَدْ أَغْضَبَتْ هَذِهِ الْهِجْرَةُ قُرَيْشاً . وزَادَ مِنْ غَضَبِهَا أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ والأَنْصَارَ مِنَ الْمَدِينَةِ ، عَاشُوا إِخْوَةً أَعِزَّاءَ مُتَحَابِّينَ .

وإِذَا كانَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ مكة ، والأَنصَارُ بِالْمَدِينَةِ قَدْ عَاشُوا إِخْوَةً مُتَحابِّينَ . . . فَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ قَدْ ضَايَقَهُمْ أَنْ تَطُولَ مُدَّةُ وُجُودِهِمْ ضُيُوفًا عَلَى الأَنْصَار فى المدِينة ، وَأَنْ يَتْرُكُوا أَمْوالَهُمْ وَتِجارَتَهُمْ فى مَكَّة تَحْتَ يَدِ قُرَيْشٍ

وَقَدْ سمِعُوا ــ ذَاتَ يَوْمٍ ــ أَنَّ قَافِلَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيشٍ يَقُودُها أَبو سُفْيَانَ ، قَادِمَة مِنْ « دِمَشْق » الشَّامِ إِلَى مكة ، فَرَأَوْا أَنْ يَتَعرَّضُوا لَهَا وَيَأْخُذُوا مَا فِيها ، تعْوِيضًا لَهُمْ عَمَّا تَرَكُوهُ فى مَكَّةَ .

وَعِنْدَمَا بَلَغَ الْخَبَرُ « مَكَّةَ » اشْتَدَّ غَضَبُ قريشٍ عَلَى « مُحَمَّد » وَأَصْحابه ، خِاصَّةً وَأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْه الصَّلاة وَالسَّلامُ بَعَثَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ الْمُسْلِمينَ إِلَى مكانٍ بيْن مَكَّةَ وَالطَّائف ، لِيَعْرِفُوا أَخْبَارَ قُرَيْشٍ ، وَفى هذَا الْمكَانِ الْتَقَى الْمُسْلِمون ببعَضِ الْكُفَّار ، وَتَقَاتَلُوا مَعَهُم وَأَسَرَ الْمُسلِمُون اثْنَيْن ، وَقَتَلُوا الثَّالِثَ .

لِذَلَك رَأَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يخْرُجُوا لِقتَالِ الْمُسْلِمينَ . وَزَحَفُوا : أَلْفَ مُقَاتِلٍ ، وَمِائَةَ فَرَسٍ ، غَيْرَ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَنْتظِر الْمُسْلِمُونَ قُدُومَهُمْ إِلَى الْمدَينة ، بَلْ خَرَجُوا لِمُلاَقَاتِهِمْ . وَلَمْ يكُنْ عَدَدُهم يَتَجَاوَزُ ثُلُثَ عَدَدِ أعدَائِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ سِوَى فَرَسَيْن فَقَطْ .

وَقَبْلَ أَن يَصِلَ الْمُسْلِمونَ إِلَى مَكَانِى - أَنَا الْبئر بَدْر - رَغِبَ الرسولُ (ﷺ) فى أَن يُعَسْكِرَ بِرِجَالِهِ فى مَكَانٍ بَعيدٍ عَنِّى ، وَلكِن وَاحِدًا مِنَ الصَّحَابَةِ أَشَارَ عَلَيْه أَن يُعَسْكِروا بِقُرْبى ، لِيَشرَبَ الْمُسْلِمونَ مِنْ مَائِى ، وَلِيمْنَعُوا الْمِيَاهَ

عَنْ قُرَيْشٍ . وَاسْتَجَابَ الرَّسُولُ لِهذِهِ الفِكرَةِ . وَعَسْكَرَ الْمُسْلِمونَ مِنْ حَوْلِي ، وَبَنَوْا مِنْ فوْقِي حَوْضًا يَشربُونَ مِنهُ ، وَيَسْقُونَ إِبِلَهمْ.

وَأَقبلَت قُرَيْشٌ بِأَسْلِحَتِهَا وَخَيْلِهَا زَاحِفَةً ، وَأَدْرَكت خُطَّةَ الْمسْلِمِينَ بِحِرْمَانِهِمْ مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَقسَمَ وَاحِدٌ مِنْ الْكُفَّارِ أَن يَشرَبَ مِنِّي أَوْ يَهْدِمَ الْحَوْضَ مِنْ فَوْقِي . فَخَرَجَ إِلَيْهِ « حَمْزَةُ » عَمُّ الرَّسولِ (ﷺ) ، وَضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ لِيرِيحَ مِنهُ الدُّنيَا . وَكَانَ مِنْ تَقَالِيدِ الْمَعَارِكِ الْقَدِيمَةِ أَن تَبْدَأَ بِمبَارَزَةٍ فَرْدِيَّةٍ قَبْلَ أَن يَلتَحِمَ الْجَيْشَانِ (١) خَرَجَ «عتبَةُ» صَاحِب شُجَيْرَةِ الْعِنَبِ فِي الطَّائِفِ ، وَأَخُوه « شَيْبَةُ » ، وَابْنُهُ « الْوَلِيد » ، يَسْأَلُونَ أَصْحَابَ « محَمَّدٍ » : هَلْ مِنْ مبَارِزٍ ؟

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ فَرَفَضُوا لأَنَّهمْ يرَيدونَ أَن يُقَاتِلُوا بَعْضًا مِنْ أَبْنَاءِ مَكَّةَ مِنْ الْمهَاجِرِينَ .

---

(١) يلتحم الجيشان : يلتقيان ويتشابكان للقتال .

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ حَمْزَةَ ، عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ ، وَعَبِيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَانتَصَرَ كُلٌّ مِنهماَ كَماَ انتَصَرَ حَمْزَةَ ، فَصَرَخَ أَبو جَهْلٍ :

ـ اهْجموا يَا أَهْلَ مَكَّةَ .

وَهٰكَذَا لَمْ يبْدَأ المسْلِمونَ بِالْهُجُومِ ؛ بَل انتَظَرُوا هُجُومِ عَدُوِّهِمْ ، وَثَبَتُوا فِى أَمَاكِنِهِمْ ، وَتَعَالَى هُتَافُهُمْ وَهُمْ يَندَفِعُونَ إِلى صفُوفِ الأَعْدَاءِ :

ـ الله أَكبَرُ . . . الله أَكبَرُ . . . الله أَكبَرُ .

وَاشتَدَّ الْقِتَالُ ، فَانزَعَجَ أَبُو بكرٍ وَهُوَ يَرى كَثرةَ عددِ الْكُفَّارِ ، وزِيادةَ أَسْلِحتِهِم . وسأَل الرسول (ﷺ) أَن يدْعُوَ ربَّهُ ويطلُبَ مِنهُ الْمعُونَةَ ؛ فَارْتَفَع صوْتُ النَّبِىِّ (ﷺ) :

ـ ياحىُّ ياقَيُّومُ . . . ياحىُّ ياقَيُّومُ . . . ياحىُّ ياقَيُّومُ .

وبعْد قَلِيلٍ قَال النَّبىُّ (ﷺ) لأَبِى بكرٍ وللمُسْلِمين :

ـ أَبْشِرُوا . . . إِنَّ النَّصْرَ لِلمُؤْمِنِين .

وما أَنِ أَعْلَن عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ذٰلِكَ ، حتَّى ارْتَفَعت صيْحاتُ الْمُسْلِمِين ، وزَاد اندِفَاعُهُمْ لِلقِتَالِ وهُجُومُهُمْ علَى عدُوِّهِمْ ، ومُحمَّدٌ يقُودُ الْمعْرَكَةَ ، ويسْأَلُ أَصْحابهُ أن يسْتَبْسِلُوا (١) ، ويُذَكِّرُهُمْ بِوعْدِ اللهِ لَهُمْ بِالنَّصْرِ لِلْأَحْياءِ ، وبِالْجنَّةِ لِلشُّهداءِ .

وأَلْقَى أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ بِبَعْضِ تَمَرَات كَانَت فى يَدِهِ ، وَقَالَ :

ـ لَيْسَ بَيْنِى وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ أَن يَقتُلَنى هٰؤلاءِ .

وَهَجَمَ عَلَى « هٰؤلاَءِ » ، وَشَدَّدَ الْهُجُومَ ، واستقْبلَ الْمَوْتَ فِى سَبيلِ اللهِ بِقَلبٍ رَاضٍ وَإِيمَان عَظِيمٍ ، فِى مَعْرَكَةٍ بَيْنَ أَلْفِ رَجُلٍ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُسَلَّحِينَ ، فِيهِمْ مَائَةٌ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ ، وَبَيْنَ ثُلثِ عَدَدِهِمْ مِنْ رِجَالٍ أَقَلَّ سِلاَحًا وَأَقَلَّ خِبْرَةً فِى الْقِتَالِ .

---

(١) يستبسلوا : المراد أن يقاتلوا الأعداء بكل شجاعة .

كَانَ السِّلاَحُ وَالْبَاطِلُ فى جَانِبٍ .

وَالإِيمانُ وَالشَّجَاعَةُ وَالحَقُّ فِى الجَانِبِ الآخَر . . .

فَأَيُّهُمَا يَنتَصِرُ ؟

لَوْ أَنَّ أَحَدًا شَاهَدَ الْمَعْرَكَةَ ـ كَمَا شَاهَدْتُها ـ أنا بِئر بدْر ـ لَأَحسَّ بِالدَّهْشَةِ والذُّهُولِ . . . فَإِنَّ قَادَةَ قُرَيْشٍ وسادتَها وأشجعَ رِجالِها ، قَدْ بَدَءُوا يتَراجعُونَ بَعْدَ أن ماتَ مِنهُمْ كَثِيرُونَ ، بيْنَهُمْ « أَبُو جهْل » . واضطُرَّ الْكُفَّارُ لأن يتركُوا أَرْضَ الْمعْرَكَةِ بِالْقُرْبِ مِنِّى ، بعْد أن تَرَكُوا سبْعِين قَتِيلاً ، وعادُوا إِلَى مكَّةَ بِالْجرْحَى والْجُنُودِ الْمهْزُومِين أمام مُحمَّد وَأَصْحَابِهِ .

وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ غَانِمِينَ (١) مُنتَصِرِينَ ، بَعْدَ أن فَقَدُوا عِندِى أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهِيدًا ، أَحْيَاءً عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَأَسَرُوا مِن الْكُفَّارِ سَبْعِينَ رَجُلاً . وكَانَ هٰذَا النَّصْرُ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

(١) غانمين : فائزين بالنصر وبما أخذوه من الأعداء .

وَاسْتَقبَلَتِ الْمَدِينَةُ أَبْطَالَهَا الْمُنتَصِرِينَ بِالْفَرْحَةِ الْكَبِيرَةِ ، وَآمَنَ بِالرَّسُولَ (ﷺ) كَثِيرُونَ ، بَعْدَ أَن أَدْرَكُوا أَنَّ مَا حَدَث عِندِى لاَ يُمْكِنُ أَن يَكُونَ إِلاَّ بِمَعُونَةِ اللهِ وَمُسَاعَدَتِهِ .

وَعَامَلَ الْمُسْلِمُونَ الْأَسْرَى مُعَامَلَةً طَيِّبَةً ، وَأَرَادَ هٰؤُلاَءِ الأَسْرَىٰ أَن يَعُودُوا إِلَى أَهْلِهِمْ عَلَى أَن يَدْفَعُوا فِدْيَةً مُقَابِلَ إِطْلاَقِ سَرَاحِهِمْ ، وَلٰكِنْ كَانَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْرَى مَنْ لاَ يَمْلِكُ نُقُودًا لِيَدْفَعَ الفِدْيَةَ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ : « تَسْتَطِيعونَ أَن تَعُودُوا إِلَى أَهْلِكُمْ ، إِذَا عَلَّمَ كُلُّ وَاحِد مِنكُمْ عَشرَةً مِن الْمُسْلِمِينَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ !!

لَقَدْ كَانَ انتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عِندِى ، أَوَّلَ نَصْرٍ أَحْرَزُوهُ ، وَأَوَّلَ خُطْوَة عَلَى طَرِيقٍ مِنَ الْمَعَارِكِ الَّتى كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوا فِيهَا . . وَكَانَ رَائِعًا أَنْ يَجِىءَ ذِكْرِى فِى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : أَنَا الْبِئْر الصَّغِيرَة ، عَلَى الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَالَّتى كَانَ يَقْصِدُهَا النَّاسُ مِنْ أَجْلِ الْمَاءِ

فَقَطْ . فَإِذَا بى أُصْبحُ رَمْزًا لِمَعْـرَكَة رَائِعَـة بَيْنَ السِّـلاَحِ وَالْبَاطِلِ مِنْ جَانِبٍ ، وَالْإِيمَانِ وَالْحَقِّ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ ، فَيَنْتَصِرُ الْحَقُّ وَيَنْهَزِمُ الْبَاطِلُ . . إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا .

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَـدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ ، لَعَلَّـكُمْ تَشْكُرُون » .

[صدق الله العظيم]

القصة الثامنة

- شجرة الحديْبية
- تحكى لنـا عن
- البيعة والصُّلح

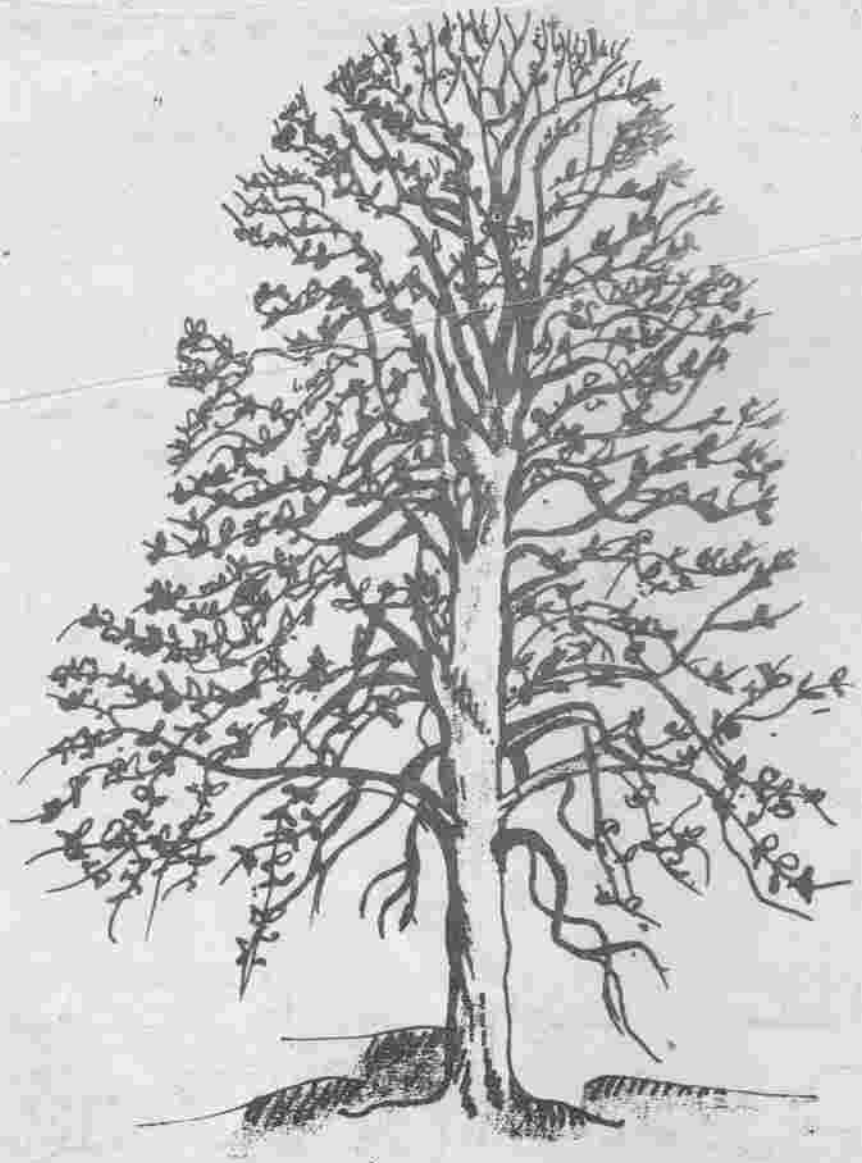

الأَشجَارُ فى جَزِيرَةِ العَرَبِ قَليلَةٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَنَا مَعَ رَسُولِ الله مَوَاقِفُ وَذِكْرَيَاتٌ لاَتُنْسَى ، فَلا يَنْسَى التَّارِيخُ مَوْقفًا شُجَاعًا لِلرَّسُولِ (ﷺ) الشُّجَاعِ الْكَرِيمِ تَحْتَ أُختٍ لى قَبْلى . . . خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ذَاتَ يَوْمٍ لِيَسْتَطْلِعَ أَخبَارَ الْكُفَّارِ الْقَادِمِينَ لِمُحَارَبَتِهِ ، وَوَجد الشَّجرةَ أُختى ، فَرأَى أَن يستَنِد إِلَيْهَا ويستَظِلَّ بِهَا . وفَاجأَهُ واحِدٌ مِن الْكُفَّارِ ، وكَانَ يَحْمِلُ سَيْفًا ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ (ﷺ) الْكَرِيمِ :

– مَنْ يَسْتَطِيعُ أَن يُنقِذَكَ الآنَ مِنْ يَدِى ؟

لَمْ يَهتَز الرَّسُولُ وَلَمْ يَخَفْ ، بَلْ أَجَابَ فى هُدُوءٍ وَثَبَاتٍ :

– الله .

اضْطَرَبَ الرَّجُلُ وَخَافَ وَارْتَعَشَ ، وَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ ، فأَخَذَهُ الرَّسُولُ (ﷺ) ، وَسَأَلَ الرَّجُلَ نَفْسَ السُّؤَال :

ـ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْقِذَكَ الآن مِنْ يَدِى ؟

لَمْ يَجِد الرَّجُلُ مَا يُجِيبُ بِهِ ، بَلْ زَادَ خَوْفُهُ وَاضْطِرَابُهُ . . فَعَفَا عَنْهُ الرَّسُولُ الشُّجَاعُ الْكَرِيمُ .

أَمَّا قِصَّتى أَنَا مَعَ الرَّسُولِ ، فَيَكْفِينى فَخْرًا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ سَجَّلَهَا ، فَخَلَّدَ ذِكْرِى فى التَّارِيخِ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .

كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصلاة وَالسَّلامُ قدْ بَعَث بعُثمَان ابْن عَفَّان إِلَى قُرَيشٍ ؛ لِيُبْلِغَهُمْ أَن الْمُسْلِمينَ يُريدُون زِيَارَةَ الْكعْبَةِ . وَشاعَ عِندَ الْمُسْلِمينَ أَنَّ الْكُفَّارَ قتلُوا « عُثمَان » . فقرَّرَ الرَّسُولُ (ﷺ) أَنْ يُحَارِبَهُمْ . وَدَعَا الْمُسْلِمينَ لِلْبَيْعَةِ عَلَى الْقِتالِ . وَتمَّتِ الْبَيْعَةُ تحْتى . وَنزلتْ عَنْهَا وَعَنِّى الآيَةُ الْكَرِيمَةُ :

« لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » .

سَمِعَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِالْبَيْعَةِ ، فَخَافُوا وَفَزِعُوا . وَعَادَ عُثْمَان مِنْ مَكَّةَ وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ قَتَلُوهُ . وجَاءَ رَسُولٌ لَهُمْ يُعْلِنُ رَغبَةَ قُرَيْش فى أَلاَّ تَقُومَ بَيْنها وَبَيْنَ الْمُسْلِمينَ حَرْبٌ جَديدَةٌ لِمُدَّةِ عَشر سَنوَات ، وَيَحْمِلُ شُرُوطًا لِلصُّلْحِ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ . وَسُمِّىَ « صُلْحَ الْحُدَيْبِيةِ » ، وَفِيهِ أَلاَّ يَدْخُلَ الْمُسْلِمُون مَكَّةَ هَذَا الْعَام ، وَلَهُمْ أَنْ يَحُجُّوا فى الْعَامِ التَّالِى وَيَبْقوا فى مَكَّةَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ . وَأَنْ يُعِيدَ مُحَمَّدٌ إِلَى قُرَيْشٍ مَنْ يَأْتى مِنْهَا إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمينَ ، وَلاَ تُعِيد قُرَيْشٌ مَنْ يَذْهبُ إِلَيْها مِنْ الْمُسْلِمينَ . وَيَكُونُ مِنْ حَقِّ الْعَرَبِ أَنْ يَنْضمُّوا إِلى مُحَمَّدٍ أَوْ إِلى قُرَيش ، وَلَيْسَ لأِحَدِ الطَّرَفيْنِ أَنْ يَعْتدِىَ عَلَى حُلفاءِ (١) الآخرِ .

وَلَمْ يَرْضَ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد عَنْ هَذَا الصُّلْحِ وَغَضبُوا ، لأَنَّ هذَا الاتِّفَاقَ يَجْعَلُهُمْ يُعِيدُونَ إِلى قُرَيش منْ يَأْتى إِلى الْمَدينَةِ مُسْلِمًا . وَتَصَوَّرُوا أَنَّ ذَلِكَ يُثْبِتُ ضعْفَهُمْ ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ (ﷺ) قَبِلَ هَذَا الاتِّفَاقَ وَوَقَّعَ عَلَيْهِ .

---

(١) الحلفاء : الأنصار .

وَمَعَ الأَيَّامِ ، تَبَيَّنَ الْمُسْلِمُونَ ـ وَأَنَا مَعَهُمْ ـ أَنَّ الاتِّفَاقَ كَانَ فى صالِحِهِمْ . فَإِنَّ إِعَادَةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيشٍ ضَايَقَ أَهْلَ مَكَّةَ ، لأَنَّ هَؤُلاءِ كَثُرَ عَدَدُهُمْ ، فَعَسْكَرُوا عَلى الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَقَاوَمُوا الْكُفَّارَ وَأَغَارُوا عَلى قَوَافِلِهِمْ ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنَ الرَّسولِ (ﷺ) أَنْ يَسْتَبْقِيَهُمْ عِنْدَهُ فى الْمَدِينة ، وَلاَ يَرُدَّهُمْ إِلى مَكَّةَ ، هذَا بَيْنَمَا لَمْ يَخْرُجْ وَاحِدٌ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ لِيَذْهَبَ إِلى قُرَيْشٍ ، بَلْ لَقَدِ اهْتَزَّتْ قُلُوبٌ كَثِيرَةٌ لِمَوْقِفِهِ الْعَظِيمِ ، وَبَدَأَتِ الْقَبَائِلُ تَدْخُلُ فى الدِّينِ الْجَدِيدِ ، مِمَّا جَعَلَ قُرَيشًا تَضِيقُ بِالصُّلْحِ وَتَنْقُضُ الاتِّفَاقَ ، وَتَتَعَرَّضُ لِقَبِيلَةِ « خُزَاعَةَ » الَّتى انْضَمَّتْ إِلى الرَّسُولِ عليْه السَّلامُ . وَهُنَا أَعْلَنَ النَّبِىُّ انْتِهَاءَ هذِهِ الاتِّفَاقِيَّةِ ، وَذلِكَ الصُّلْحِ .

وَمَا هِىَ إِلاَّ أَيَّامٌ ، حَتَّى رَأَيْتُ عَشَرَةَ آلاف مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُسَلَّحِينَ : يَزْحَفُونَ عَلى مَكَّةَ . . وَوَجَدَتْ قُرَيشٌ نفْسَها غيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى مُحَارَبَتِهِمْ ، فَتَقدموُا بِلاَ أَيَّةِ مُقَاوَمَةٍ ، لِكَىْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ فَاتِحِينَ مُنْتَصِرِينَ .

وَلَكِنَّ أَحَدًا لَمْ يَنْسَ يَوْمَى . . يَوْمَ الشَّجَرَةِ ، حِينَ عَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ النَّبِىَّ (ﷺ) عَلَى الْقِتَالِ ، وَأَقْسَمُوا :

ـ النَّصْرَ أَوْ الْمَوْتَ .

وَجَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَدَخَلَ النَّاسُ فى دين اللهِ أَفْوَاجًا (١) . وَسَمِعْتُ الْمُسْلِمِينَ فى كُلِّ أَرْجَاءِ الْجَزِيرَةِ ، يُرَدِّدُونَ كَلِمَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصلاَةُ والسلامُ أَمَامَ الْكَعْبَةِ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ مَكَّةَ . لَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْفِكُوا دَمًا ، أَوْ يَقْطَعُوا شَجَرَةً ، واهْتَزَّتْ فُرُوعِى ، وأَغْصَانِى ، وَأَوْرَاقِى ، لِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْكَرِيمَةِ .

ثُمَّ اهْتَزَّ قَلْبِى وأَنَا أَسمَعُ بَقِيَّةَ قَوْلِ الرَّسولِ (ﷺ) :

ـ يَامَعْشَرَ قُرَيشَ . . مَا تَظُنُّونَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُمْ ؟

قَالُوا : خَيْرًا . . أَخٌ كَرِيمٌ ، وابْنُ أَخٍ كَرِيم . .

قَالَ : اذْهَبُوا ، فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ .

---

(١) أفواجا : جماعات .

وَظَلَلْتُ وَاقِفَةً مَكَانِى أَسْمعُ بَعْدَ ذَلِكَ أَخبَارَ انْتِصَار الْمُسْلِمينَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّد . . فى أَيَّام أَبى بكْر الصِّدِّيق . . ثُمَّ فى أَيَّام عُمَرَ بْن الْخَطَّاب . وَعَرَفْتُ أَنَّ نُبُوءَةَ الرَّسُولِ بِأَنَّ بَلادَ فَارسَ والشَّام وَاليَمَن سَتَدْخُلُ الإِسْلاَمَ قَدْ تَحَقَّقَتْ، وَأَنَّ نبُوءَتَهُ لِسُرَاقَةَ بْن مَالِك بِأَنَّهُ سَيَلْبَسُ سِوَار كِسْرَى قَدْ تَحَقَّقَتْ . فَبَعْدَ فَتْح «الْمدائِن» عَاصِمَةِ فَارس ، اسْتَدْعَاهُ عُمَرُ إِلَيْهِ ، وَأَلْبَسَهُ ذَلِكَ السِّوَارَ . لَقَدْ سَمِعْتُ كُلَّ هذا مِنْ الْكثيرين الَّذينَ كانُوا يَزُورُوننِى لِلتَّبَرُّكِ بِى ، وَلْيَذْكُرُوا يَوْمِىَ الْعَظيم ، حينَ جلسَ الرَّسُولُ تحْتى ، يَتلقَّى الْبَيْعَة مِنْ الْمُسْلِمينَ ، وَيَسْمَعُ الْعَهْدَ عَلَى : النَّصْر أَو الْمَوْتِ .

وَخاف عُمَرُ بْنُ الْخطَّاب مِنْ كثْرَةِ زُوَّارى ، فأَمَرَ بأَنْ يَقْطعُونى وَيَقْتلِعُونى مِنْ جُذُورى . وَلَمْ أَهْتم لِذلِك وَلَمْ أَحْزَن . يَكْفى أَنَّ شجَرَة الإِسْلام أَصْبَحَتْ تُظلِّلُ الْمَلاَيينَ مِنْ الْمُؤْمِنينَ بِالنَّبِىِّ الإِنْسَانِ ، وَرسَالَتِهِ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلام .

القصة التاسعة

● رايةُ الإســـلام
تحكى لنـــا عن
انتصارِ الإسلام

أَحْياناً أَكونُ رَايَةً مِنْ قُمَاشٍ . . وَأَحْيانًا أَكونُ بلاَ قُمَاشٍ . فَأَنا رَايَةُ الإِسْلاَمِ . . دِينِ اللهِ الْحَنِيفِ . . الَّذِي أَرسَل بِهِ مُحَمَّدًا خَاتِمًا لِلأَنْبياءِ والْمُرْسَلِينَ .

وفى حَيَاتى أَيَّامٌ لاَ تُنْسى ، وأَحْدَاثٌ يُسجِّلُها التارِيخُ بِأَحرُفٍ بَارِزَةٍ مِنَ النُّور .

وَكَانَتْ « يثربُ » هى أَوَّلُ مَدينَة رَفْرفْتُ فى سَمائِهَا ، وهى الَّتى سُمِّيَتَ بعد ذلك « الْمَدينَةُ الْمُنَوَّرَة » ، بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ نَجاةً بِدِينِ اللهِ مِنْ أَذَى قُرَيشٍ وَكَيْدِها للمسلمين،وَقَدْ كُنْتُ أُرَفْرِفُ وأَنَا فَرِحَةٌ بالإِخَاءِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ ، وَضَرَبَ الأَنْصَارُ أَرْوَعَ الأَمثِلَةِ فى اسْتِضَافَتِهِمْ لِلْمُهَاجِرِينَ . قَدَّمُوا لَهُمْ كُلَّ مَا يَمْلكُونَ لِيَقْتَسمُوهُ مَعَهُمْ .

وَكَانَتَ معركة « بدر » هى أَولُ مَعْرَكَة أَكُونُ فِيهَا اللِّوَاء . وَقَدْ دَافَعَ عَنِّى الأَبْطَالُ الْبَوَاسِلُ مِنَ المسْلمين

دفاعًا رائعا وعظيمًا تُسانِدُهُمُ الْمَلائكَةُ ، فَهَزَمُوا الْكُفَّارَ شَرَّ هَزِيمةٍ وَرَفَعُونى عَالِيَةً خَفَّاقَةً . . أنا رَايَةُ الإِسْلاَمِ .

وكِدْتُ أَنْتَكِسُ فى معركة « أُحُدٍ » ثُمَّ فى معركة « الْخَنْدَقِ » . وَلٰكِنَّ اللهَ أمدَّ الْمُسْلِمِينَ بِعَوْنِهِ وَفَضْلِهِ ، فَصَبَرُوا وصَابَرُوا ، وَجَاهَدُوا ، وَاسْتُشْهِدُوا ، وَاسْتَعْذَبُوا الْمَوْتَ فى سَبِيلِ اللهِ وَلِنُصرةِ دِينِ اللهِ ، فَبَقِيتُ عَالِيَةً خَفَّاقَةً يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ عَدَدُ مَنْ يَسْتَظِلُّونَ بى . . أنا رايَةُ الإِسْلاَمِ .

وَارْتَفَعْتُ وَعَلَوْتُ فى سَمَاءِ مَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ . . يَوْمَ جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . . وَانْتَكَسَتْ رَايَةُ الأَصْنَامِ وَطُوِيَتْ ، وَلَمْ تَقُمْ لَها بَعْد ذَلِكَ قَائِمَةٌ .

وبَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ بعامٍ وَاحِدٍ ، كُنْتُ أُرَفْرِفُ فَوْقَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا ، بَعْدَ أَنْ جاءَتِ الْوُفُودُ تِلْوَ الْوُفُودِ إِلى الرَّسُولِ تُعْلِنُ إِسْلاَمَها ، وَاسْتِظْلاَلَهَا بى . . أَنَا رايَةُ الإِسْلاَمِ .

وَفى السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ لِلْهِجْرَةِ ، يَومَ أَنْ حَجَّ الرَّسُولُ حِجَّةَ الوداع، كُنْتُ أُرَفْرِفُ مِنْ فوقِ ما يَزِيدُ على مائَةِ أَلف مُسْلِمٍ ، كانُوا يَطُوفُونَ مَعَ مُحَمَّدٍ حَوْلَ بَيتِ الله الحَرَامِ ـ مَا أَرْوَعَهُ يَوْماً وَمَا أَعْظَمَ ذِكْرَاهُ .

وَتَطُوفُ بى الذِّكْرَيَاتُ ، وتَتَتَابَعُ الأَحْدَاثُ . فَقَدْ رَافَقْتُ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) فى جميعِ خُطُوَاتِهِ خُطْوَةً خُطْوَةً ، وَفى جَمِيعِ غَزَوَاتِهِ ، غَزْوَةً غَزْوَةً ، وعَرَفْتُ أَيَّامَهُ وَلَيَالِيه ، وَشَهِدْتُ أَعْمَالَهُ ، وَسَمِعْتُ أَقْوَالَهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّهُ كان عَظِيماً فى كُلِّ شَىءٍ . . كَانَ إِنْسَانًا ، وَقَائِدًا ، وَرَائِداً ، وَشُجَاعاً ، وَمِقْدَاماً ، وَكَرِيماً ، وَحَكِيمًا وَسَمْحًا ، وَنَبِيلاً . . لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحْصِىَ مناقِبَهُ (١) أَوْ أَعُدَّ سجَاياهُ (٢) . وَكَفَى وَصفُ اللهِ لَهُ :

« وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

---

(١) المناقب: المفاخر التى يفخر بها الإنسان

(٢) السجايا : الأخلاق الطبيعية

لَقَدْ أَحْبَبْتُهُ (ﷺ) ، حُبًّا جَمًّا ، كَمَا أَحَبَّهُ كُلُّ النَّاسِ . وَكُنْتُ أَزْهُو وَأَسْعَدُ وَأَنَا أُرَفْرِفُ كُلَّ يَوْمٍ فَوْقَ رُؤُوسِ أَفْوَاجٍ وَأَفْوَاجٍ جَدِيدَةٍ مِنَ النَّاسِ ... تَفِدُ إِلَيْهِ تُعْلِنُ إِسْلاَمَهَا ، وَتُعَاهِدُهُ عَلَى أَنْ تَنْشُرَ دَعْوَتَهُ وَتَرْفَعَنِى أَنَا رَايَةَ الإِسْلاَمِ .

إِلَى أَنْ كَانَ يَوْمٌ ، هُوَ أَسْوَأُ يَوْمٍ فِى حَيَاتِى ، اضْطَرَبْتُ فِيهِ اضْطِرَابًا شَدِيدًا ، وَهَزَّنِى الْفَزَعُ ، وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَى النَّبَإِ الَّذِى لَمْ أُصَدِّقْهُ مِثْلَ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب نَفْسُهُ لَمْ يُصَدِّقْ ، وَهَدَّدَ مَنْ يُرَدِّدُ النَّبَأَ . وَبَقِىَ الْمُسْلِمُونَ فَتْرَةً فِى حَيْرَةٍ وَفَزَعٍ وَاضْطِرَابٍ ، إِلَى أَنْ ارْتَفَعَ صَوْتُ أَبِى بَكْرٍ يَقُولُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ . وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَىٌّ لاَيَمُوت » ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ تَعَالَى :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئًا ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ » .

فيَقُولُ عُمَرُ : فَكَأَنِّى لَمْ أَتْلُ هذِهِ الآيَةَ قَطُّ .

وَيَسُودُ النَّاسَ صَمْتٌ طَويلٌ حزينٌ . ولَكِنْ لاَبُدَّ مِنْ أَنْ يخْرُجُوا مِنْهُ . إِنَّ هُنَاكَ جَيشًا فى الشَّام يَحْمِلُ رَايَتَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، أَعَدَّهُ الرَّسُولُ (ﷺ) قَبْلَ وَفَاتِهِ .

وَهُنَاكَ غَيْرُ ذَلِكَ الَّذينَ انْتَهَزُوا فُرْصَةَ وَفَاةِ الرَّسُولِ (ﷺ) وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلاَم ، وَالذينَ كَفُّوا عَنْ دَفْع الزَّكَاةِ ، وَالَّذِينَ أَعْلَنُوا الْعِصْيَانَ وَحَاوَلُوا أَنْ يُنْزِلُونى مِنْ فَوْقِهِمْ . . أَنَا رايَةُ الإِسْلاَم !

وَتَتَدَافَعُ الأَحْدَاثُ كَرَّة بَعْدَ أُخْرَى ، وَيَعُودُ الْمُرْتَدُّونَ إِلى الإِسْلاَم ، ويَدْفَعُ الزَّكَاةَ مَنْ كَانُوا قَدْ تَوَقَّفُوا عَنْ دَفْعِهَا ، وَيُقْضى عَلى الْعِصْيَانِ . . وَأَعُودُ أَنَا رَايَة الإِسْلاَم وَأَرْتَفِعُ فى كُلِّ مَكان ارْتَفَعْتُ مِنْ قَبْلُ فيهِ .

وَعَلَى يَدِ خَالِدِ بن الْوَلِيدِ، وَأَبِى عبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَسَعْدِ بْن أَبى وَقَّاص ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْد ، وكَثِيرِينَ كَثيرينَ غَيْرِهِمْ مِنْ جُنُودِ اللهِ الْمَغَاوِير [1] ، أَرْتَفِعُ وَأَعْلُو فَوقَ بلاد الفرسِ وبِلادِ الروم وحصونِهم .

وتَتَابَعُ الْفُتُوحَات . . حتَّى أَصِلَ إِلى الأَنْدَلُسِ غَرْبًا ، وإِلى الصين شرْقًا . . وَلِيُصْبحَ عَدَدُ مَنْ يَسْتَظِلُّ الآنَ بى ، أَنَا رَايَةَ الإِسْلَام ، مَا يَزِيدُ عَلى سَبْعمائَةِ مَلْيُونِ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ . . مِنْ جميع الأَجْنَاسِ ومِنْ مُخْتَلِفِ الشُّعُوب .

---

(١) المغاوير : الأبطال الشجعان .